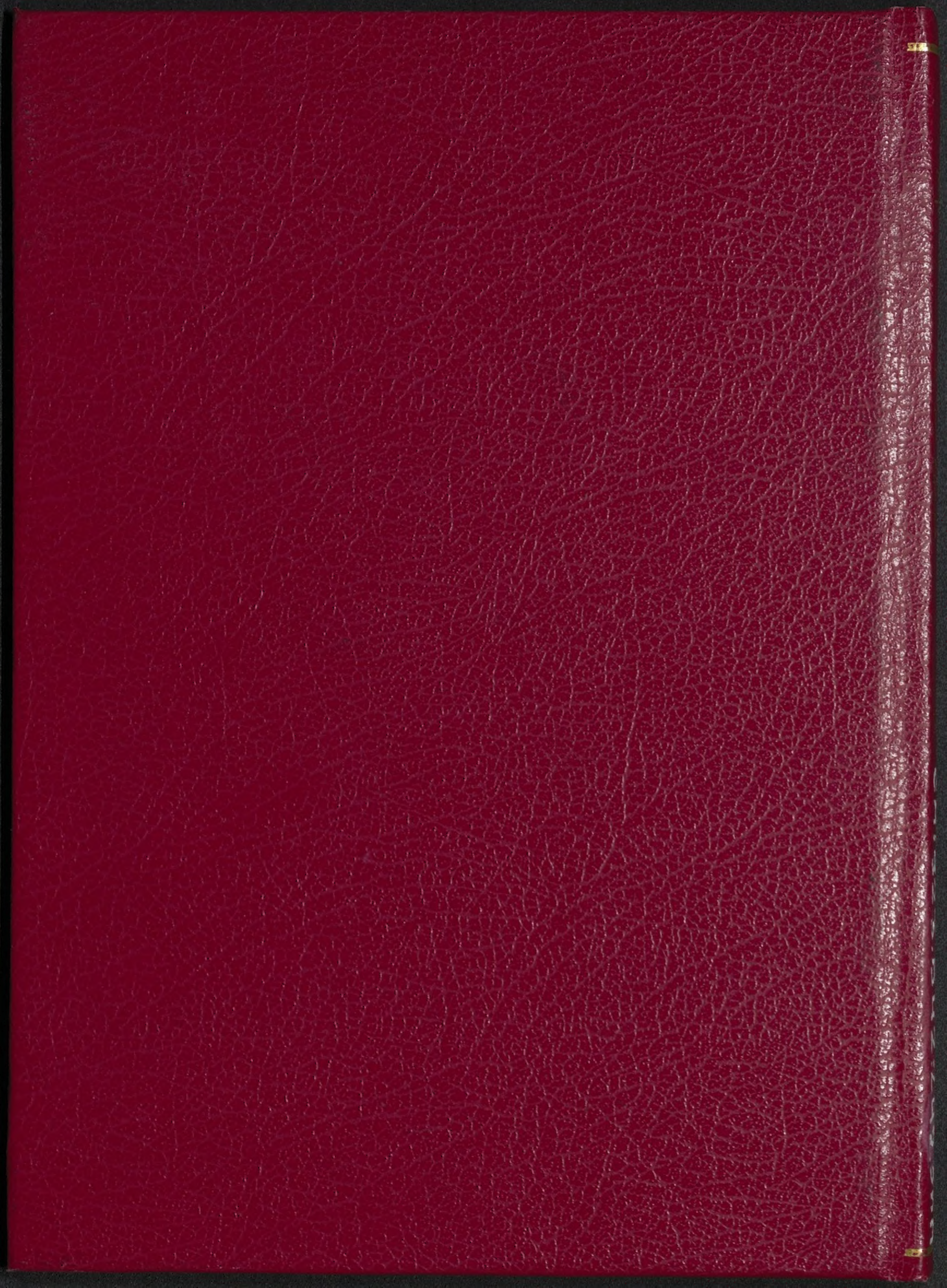
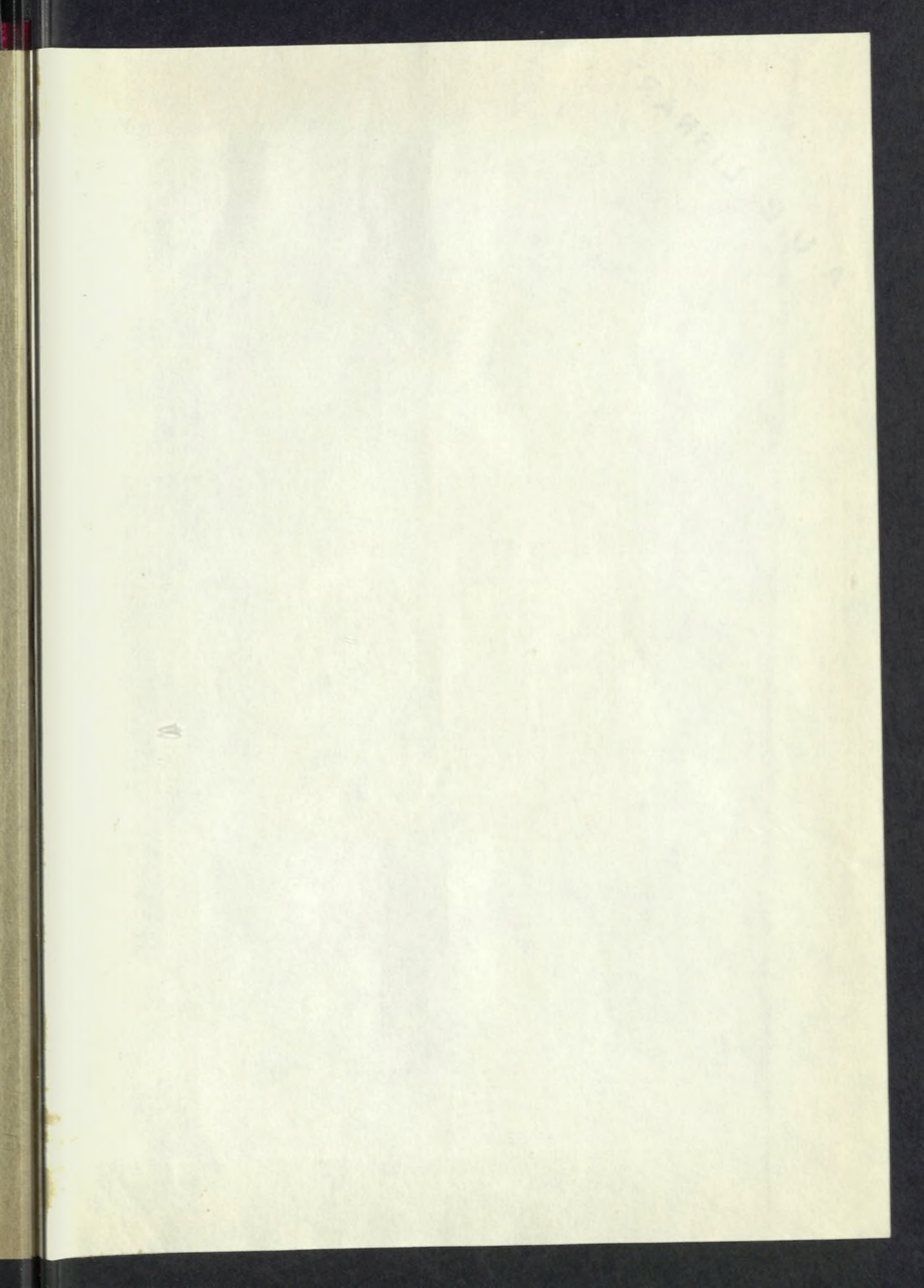




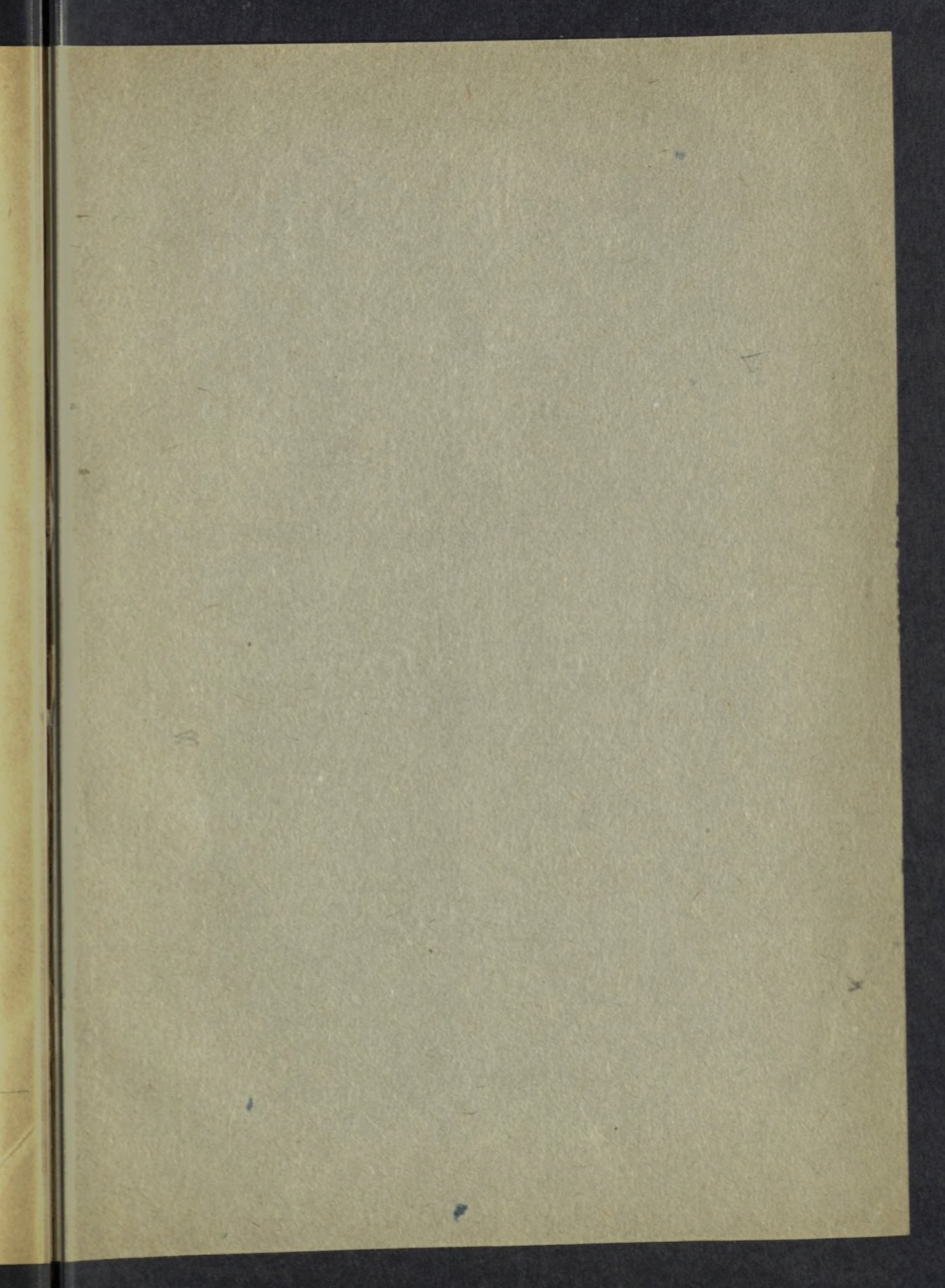
لورنس والعرب

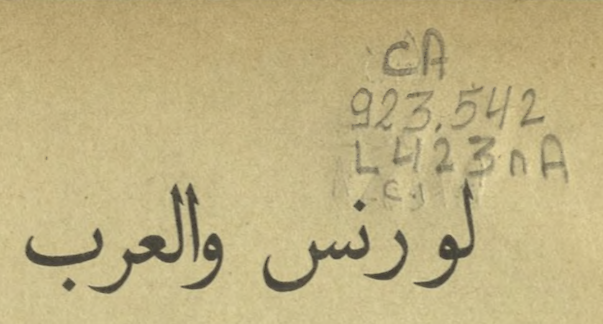
وهو خلاصة اخبار الثورة العربية في وجه الاتراك
اثناء الحرب الكونية العظمى

بقلم
شاكر خليل نصار
(مدير انشاء النشرة الاسبوعية)

الطبعة الاولى — كانون الثاني السنة ١٩٣٠

طبع في المطبعة الاميركانية — بيروت





لورنس والعرب

وهو خلاصة اخبار الثورة العربية في وجه الاتراك
اثناء الحرب الكونية العظمى

بقلم

شاكر خليل نصار

(مدير انشاء النشرة الاسبوعية)

الطبعة الاولى — كانون الثاني السنة ١٩٣٠

طبع في المطبعة الاميركانية — بيروت

مقدمة

اقدم الى القراء هذا الكتاب الذي يتضمن في صفحاتــهِ القليلة خلاصة اخبار الثورة العربية في وجـه الاتراك اثناء الحرب الكونيـة العظمى وما قـام بهِ ذلك الرحل الانكليزي المشهور الكولونل لورنس من الاعمال والخطط من يوم التحاقهِ بالجيوش العربية قرب جدة الى دخولهِ دمشق منتصراً

وقد نشرتُ هذه المقالات تباعاً في النشرة الاسبوعية وكان قصدي بها اولاً ان لا يتجاوز عددها خمساً او ستاً ولكن ما كادت المقـالتان الاوليان تنتشران بين قراء الجريدة حتى بـدأت تاتيني كتب التشجيع طالبـة اليَّ ان اسهب في الموضوع فنزلت عند طلب القراء وجعلتها ثماني عشرة مقالة · ولم اصل الى المقـالة العاشرة حتى اقترح عليَّ عدد من اصدقائي ان اجمعها في كتاب خاص لكي يطلع غير قراء النشرة ايضاً على اخبار ما كان يجري في جوارنا اثناء الحرب العظمى ايام كنا في ظلام دامس من جهة الاخبار الصحيحة . فنزلت مرة اخرى عند طلب الاصدقاء المخلصين وجمعت المقالات في هذا الكتاب بعد ان اضفت اليها بعض الرسوم

ولا ارى لي بدًا من ان اذكر المصادر التي اعتمدت عليها في وضع هذه المقالات وهي كما يأتي :—

(١) الجرائد والمجلات الغربية السيارة

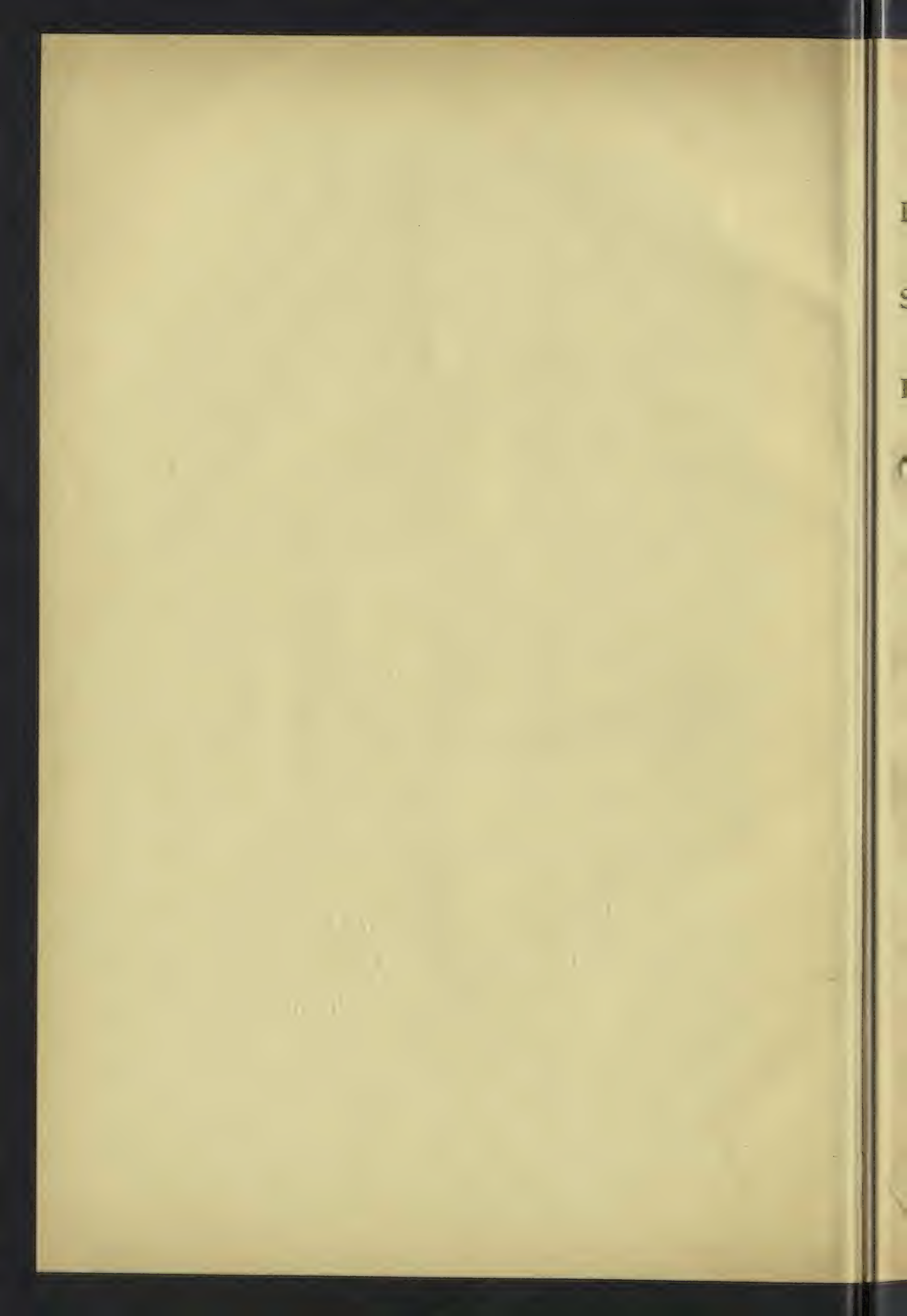
(٢) Dead Towns and Living Men, by Mr. Woolley (pp. 74-177)

(٣) St. Nicholas Magazine, Nos. July, August, September, and October, for 1927

(٤) Revolt in the Desert, by T. E. Lawrence

فعسى ان يجد القراء في كتابي هذا الفائدة واللذة فاشعر اذ ذاك انني قمت نحوهم بخدمة هي غايتي الوحيدة في وضع هذا الكتاب

شاكر خليل نصار





الكولونل لورنس الداهيـة الانكليزي المشهور
الذي كان يد فيصل اليمنى في قيادة الثورة العربية في
وجه الاتراك

١

من هو لورنس ؟ زيارته الاولى للشرق

في اوائل حزيران من السنة ١٩١٦ عندما كان العالم المتمدن شعلة من نار يخوض غمار حرب لم يعرف مثلها التاريخ سافر شاب انكليزي من مصر الى جدة ميناء مكة على شواطىء البحر الاحمر وكانت تلك السفرة واسطة لاتصاله بالعرب الذين كانوا في ثورة على الاتراك ومنذ ذاك الحين الى ان وضعت الحرب الكبرى اوزارها ذلك في السنة ١٩١٨ كان ذلك الشاب الانكليزي توماس ادورد لورنس (والذي اشتهر بعد ذلك باسم الكولونل لورنس) اليد اليمنى للملك حسين واولاده فيصل وزيد وعبد الله وعلي في تلك الثورة التي كانت سبباً لاندحار الاتراك في كل البلاد العربية والتي كانت على الاقل الحصاة التي ساعدت على رجحان كفة الميزان في الحرب لحالف النصر الحلفاء وعبس في وجه النمسا والمانيا وتركيا · وكان من شأن ذلك ما كان مما يعرفه القارىء الكريم

وقد آلينا على نفسنا ان ننشر بكل اختصار في سلسلة من المقالات اخبار تلك الثورة ذاكرين على الاخص ما قاساه ذلك الشاب الانكليزي في صحراء بلاد العرب حيث كان عليه ان يركب الهجين عوضاً عن القطر والسيارات وان يلبس

العباءة والكوفية والعقال عوضاً عن القبعة والثوب العسكري وان ياكل لحوم الجمال والغزلان والحيوانات البرية عوضاً عن اللحوم المقددة والمآكل الفاخرة وان يشرب القهوة العربية المرة عوضاً عن الشاي والبسكوت والكعك . بدأ في ثورتهِ في جدة على شواطىء البحر الاحمر وانتهى بها في بساتين دمشق حينما دخلها منتصراً مع جيوشه العربية

ولا بد لنا قبل ان نبدأ في سرد اخبار تلك الثورة من ان نقول كلمة عن ذلك الشاب قبل اتصالهِ بالشريف الحسين واولاده . خاصة بعد ان اصبح اسم لورنس على شفاه الكثيرين في البلاد العربية والاقطار الغربية

بدأ لورنس مغامراتهِ وهو في سن الصبوة حين كان يتوق الى القيام باعمال يتفوق بها على رفقائهِ فانهُ تسابق مرة مع افراد جماعتهِ في تسلق احد الجدران قرب بيتهِ فبلغ مستوى لم يبلغهُ سواه من الاولاد ولكن زلت بهِ القدم فسقط الى الارض ولما نهض وجد انهُ لا يقدر على المشي لان ساقهُ كانت قد كُسرت من تأثيرِ السقطة . ولكن ذلك لم يثن فيهِ العزم ولا اقعد منهُ الهمة بل ظلت نيران المغامرة تغلي في صدره حتى تمكن وهو شاب ان يضع اسمهُ في قاعة المشاهير في انكلترة بين اسماء ابطال مثل درايك وكليف ونلسن ورايلي وغوردن

واخبار هذا الشاب في البلاد العربية تفوق روايات الف ليلة وليلة فانها تصف ما لاقاه لورنس في تاليف جيش منظم من عرب البادية الذين لا يعرفون في الحروب سوى الغزوات ولم تالف طباعهم التنظيم والخطط الحربية

وبعد ان خمدت نيران الحرب اجلس لورنس الحسين ملكاً على العرش العربي وفيصلاً على عرش دمشق ولكن لم يطل الوقت حتى غادر فيصل دمشق من وجه الجيوش الفرنسية اذ اختلفت السياستان واضطر قسراً الى مغادرة البلاد الى العراق حيث نُصِّب ملكاً وغادر الملك حسين بلاده من وجه ابن السعود الذي جاء من نجد

واجتاح الحجاز وضمهُ الى ملكهِ . وعين الامير عبد الله احد انجال الحسين حاكماً على شرقي الاردن وهو لا زال في منصبهِ هذا الى الآن

عمل لورنس كل هذا قبل ان يجتاز الثلاثين من عمره ومما يزيد في رونق اخباره ومغامراتهِ انهُ لا يزال حيا يعمل متستراً تكتنفهُ التقولات والتكهنات فالبعض يقولون انهُ يعمل الآن في الجيش الهندي كنفر بسيط والبعض الآخر يقولون ان لهُ يداً في اشعال نار الثورة في بلاد الافغان وعلى كل حال فاننا نحب ان نطلع على ما فعل ذلك البطل في بلاد العرب مدة سنتين متواليتين . والى القارىء شيئاً من القسم الاول من حياة لورنس

تحدر لورنس من عيلة كانت تسكن اولاً على شواطىء ارلندة الغربية ومن تلك العيلة نفسها ظهر ثلاثة ابطال يحملون هذا الاسم وقد بلغوا شهرة واسعة في التاريخ الانكليزي اولهم السر روبرت لورنس الذي رافق ريكاردوس قلب الاسد الى فلسطين في الحروب الصليبية ومثل دوراً هاما في حصار مدينة عكا في ذلك الوقت والاثنان الآخران هما اخوان السر جون لورنس وكان حاكم الهند العام والسر هنري لورنس حاكم عدة مقاطعات في الهند الوسطى سابقاً وكانت قاعدتهُ مدينة لكنَو وهذا الاخير فقد حياتهُ في ثورة قامت عليهِ في تلك المدينة

كان والد لورنس على جانب عظيم من الثروة ولكن قبل ان يرى لورنس النور فقدت العيلة ثروتها واضطرت الى مغادرة مسكنها والمجيء الى مقاطعة كارنارفون في ولاية وايلس حيث نشأ عدد ليس بقليل من رجال بريطانيا العظام منهم لويد جورج . كان لورنس رابع اخوتهِ واصغرهم ولكي يتمكن الوالد من ارسال اولاده الى المدرسة ذهب بهم الى المدينة المشهورة بجامعتها وعلومها مدينة اكسفورد

هنا في مدينة اكسفورد تلقى لورنس علومهُ الابتدائية وكان منذ حداثتهِ ميالاً الى المغامرات فكان يذهب مع جماعة من اصحابهِ الى نهر قريب من المدينة تقول

عنهُ الكتب انهُ غير صالح للسفر ويسيّرون فيهِ قاربهم مسافــة بعيدة وبذلك اظهروا فساد ما كانت تدعيهِ الكتب . وكان ايضاً ميالاً جداً الى كتب الابطال وسيرهم فاستظهر جيداً اخبار الحروب القديمة من ايام الكتاب المقدس الى ايامنا الحاضرة وكان دائماً يلهج بذكر رجال كسنحاريب والاسكندر الكبير وزنفون ونابوليون وولنتون ووشنطون وغـيرهم من الابطال وكان يعيــد قراءة رحلاتهم وحروبهم حتى اصبح يعرف دقائق كل معركة من المعارك القديمة والحديثة . ولكنهُ لم يــدر في خلده قط انهُ سيصبح يوماً مــا بطلاً كهؤلاء الابطــال الذين اعجب بهم واضاف اسمهُ الى اسمائهم .

دخل لورنس جامعة اكسفورد وعوضاً عن ان يبقى فيها اربع سنوات لاتمام برنامجها ونيل شهادتها تمكن من ذلك في مدة ثلاث سنوات فقط ونال شهادة بكالوريوس في العلوم ثم اراد ان ينال شهادة استاذ في العلوم فبــدأ في الدرس واذ ان هــذه الشهادة تقتضي كتابة رسالة مطولة في موضوع يختاره الكاتب قرر لورنس على تاليف كتاب تتجلى فيهِ روح البحث والتنقيب بدل النقل والنسخ فعزم على تتبع خطوات الفرسان في الحروب الصليبية من انكلترة الى ابواب القدس في فلسطين وتاليف كتاب عن تاريخهم واخبارهم . ولما عرض هــذا الفكر على والديه لم يوافقاه عليــهِ اولاً ولكن اخيراً اضطرا الى النزول عند رغبته لِمَا راياه فيهِ من الذكاء وسرعة الخاطر فاعدوا له كمية قليلة من المال تبلغ نحو مئتي جنيه مصري او ١٠٠٠ دلر اميركي وارسلاه مــع جماعة من السياح الذين يزورون الاقطــار الشرقية للتفرج على اثارها التاريخية واماكنها المقدسة .

وفي الوقت المعين اقلعت السفينة التي تقل جماعة السياح وكان عليها سيدات غنيات واسياد كرام تلمع نظاراتهم على عيونهم فاتجهت السفينة نحو الشرق وتابعت سيرها الى ان القت مراسيها في ميناء بيروت وما كادت تطأُ رجل لورنس البر السوري حتى

اختفى عن العيان وترك جماعة السياح لشأنهم وذهب الى احــدى الاسواق حيث تباع الالبسة الوطنية وهناك نزع عنهُ ثيابهُ الافرنجية وارتدى الاثواب العربية كما انهُ طرح نعليهِ عن قدميهِ وسار حافياً في اسواق بيروت ولم يكن احد ليعرف عنــهُ شيئاً في ذلك الوقت الا ما كان يكتبهُ عن نفسهِ لوالديهِ في انكلترا

وسار في لباسهِ هذا مشياً على الاقدام مجتازاً الشواطىء البحرية الى السهول والجبال في الداخل وساكن القرويين والعرب الرحل وبذلك تمكن من درس اللغــة العربية والتكلم بها بطلاقة لسان . وكان من آن الى آخر يأتي الى مدينة تاريخية فيقف امام اطلالها متأملاً فيرجع بالفكر الى الزمن حين كانت الجيوش الصليبية تشعل نــيران المعارك مع جيوش صلاح الدين الايوبي الشجاع

وقضى في البلاد السورية مدة سنة تقريباً ولما عاد الى اهلهِ وجد انــهُ بقي معهُ نصف الدراهم التي جاء بها وذلك لانهُ بالطريقة التي عاش فيها تمكن من المعيشة بنفقات قليلة جداً . غير انهُ لم يفعل ذلك للتوفير والاقتصاد ولكنهُ احب هذه العيشة البسيطة وظن بحق انها تمكنهُ من درس البلاد درساً مشبعاً فيقف على الامــور عن كثب ولا ينقلها على عهدة الرواة كما يفعل الكثيرون من السياح

٢

لورنس يحفر الاثار التاريخية حول كركميش

رجع لورنس الى بلاده بعد ان جال في انحائنا الشرقية مدة سنة كاملة تمكن فيها من الامتزاج بالسكان ومعاشرتهم ومساكنتهم ودرس عاداتهم واخلاقهم ثم وضع الكتاب الذي طلب منهُ وضعهُ لنيل شهادة استاذ في العلوم وجاء الكتاب نفيساً حتى ان العلماء المستشرقين احلوا مؤلفهُ محلًا لائقًا بهِ فاتسع نطاق شهرتهِ وعُرف بين ابناء بلاده باطلاعهِ على الاحوال الشرقية ولما اراد المتحف البريطاني ان يرسل البعثات لدرس التمدن القديم في البلدان المختلفة انتدب لورنس ليكون عضوًا في تلك البعثات وعين لهُ عملًا شاقا جدًا يتطلب علماً وحكمة وسياسة فارسلهُ الى احدى الجزر في البحار الاستوائية لدرس الاحوال فيها وتقديم تقرير ضافٍ عن حفريات سرية كانت تقوم بها احدى الحكومات في تلك الغابات السحيقة . وقد كتم المورد الذي نستقي منهُ هذه المعلومات اسم الجزيرة واسم الحكومة التي كانت تقوم بالحفريات هنالك وذلك لامور سياسية

ولما وصل لورنس الى تلك الجزيرة وجد الوطنيين في حرب مع الغزاة الاجانب الذين كانوا يقومون بالحفريات فاتخذ جانب الوطنيين وناصرهم على اعدائهم الاجانب ونظم صفوف اولئك القوم الجهلاء واخذ يدير حركة معاركهم . واذ كانوا على وشك

القيام بهجوم الى الغابات حيث كان الغرباء يحفرون علمهم لورنس ان ياخذوا طوافات خشبية ويربطوها الواحدة بالاخرى ثم يسيرونها في النهر الى ان تصبح على مقربة من اسطول الاجانب وهناك يجمعون عليها حطباً ثم يولعون النار فيهـا ويتركونها تسير في النهر ففعلوا كما علمهم لورنس وكانت النتيجة ان الطوافات المشتعلة عندما ارتطمت ببواخر الاجانب الخشبية نقلت اليها النار فاحرقتها كلها

وهذا يدلنـا على ان لورنس لم يكن فقط رجل علم بل كان ايضاً رجل سياسة وحكمة ومغامرة. وبعد ان درس احوال الجزيرة واطلع على حفريات المنقبين المضادين لهُ رجع الى لندن وقدم التقرير الذي طلب منهُ تقديمهُ

وبعد ذلك بوقت قصير ارسلتهُ جامعة اكسفورد مع بعثة من العلماء لدرس العاديات والاثار التاريخية في مدينة كركميش في بـلاد الشرق الواقعة بين العراق وسوريا ولا يخفى على القارىء ان تلك البلاد غنية بالاثار التاريخية لانهُ نشأ فيها تمدن قديم بلغ من التقدم شاوًا بعيداً

قبل المسيح بالفي سنة تقريباً نشأ في وادي النيل تمدن راقٍ جداً هو تمدن الفراعنة بناة الاهرام وهيكل الكارناك وفي الوقت نفسهِ نشأ تمدن آخر على ضفاف الرافدين دجلة والفرات وهو تمدن اشور الذي ظهر في مدينتي بابل ونينوى وبين هذين التمدنين نشأ تمدن ثالث تمدن الحثيين الذي حتى في الوقت الحاضر لا يزال سرّاً في كثـير من مناحيهِ امام علماء التاريخ والعاديات • لدرس هذا التمدن قدم لورنس مع جماعتهِ وكان في ذلك الوقت لا يزال في شرخ شبابـهِ نحيف الجسم لكنهُ قوي العضل سريع الحركة ذو همة قعساء ونشاط يهزأُ بالاخطار

وصل الى اطلال كركميش فحط عصا الترحال واختار الفَعلة من ابناء البلاد وكان بينهم العرب والاكراد والمغول والكلدان وغيرهم وبعبارة اخرى كان فعَلتهُ مجموعة مذاهب مختلفة بينهم عداوات واحقاد ولكن بفضل سياستهِ ومعرفتهِ لاحوال البلاد

تمكن من جمع هؤلاء الاقوام في عمل واحد ورغم ميلهم الى الحرية تمكن من حصرهم في عمل يقتضي الساعات الطويلة لا بل الايام والسنين وكان مع كل ذلك محبوباً من الجميع ومعتبراً لدى السكان لانهُ لم يكن متكبراً بل كان مستعداً ان يشاطر مساكنيهِ في كل شيء يقدر عليهِ

وكان اختباره في حفر اثار كركميش يعدّه لعمل اعظم في السنين التالية ولكن على غير علم منهُ وكانت الايام تخبيء لهُ مغامرات جديدة هامة يصبح بفضلها مشهوراً في التاريخ . كان عليهِ ان يستعد لقيادة الجيش العربي الثائر على الاتراك في الحرب الكونية الكبرى وسنذكر في مقالات تاليـة اختباراتهِ في تلك القيادة التي تشبه اخبارها حكايات الف ليلة وليلة فضلاً عن انها حقيقية واقعية وبطلها لا يزال حياً

عندمـا كان لورانس يعمل في مقر الاثار كان الالمـان يستعملون كل طريقـة لتوسيع نطاق مستعمراتهم ونفوذهم في العالم اجمع فبعد ان وطدوا اقدامهم في شرقي افريقيا وغربيها ومدوا سلطانهم على كثير من جزر البحار الجنوبية سعوا الى مد سكة حديدية تصل براين بالبصرة مارة في وسط اوربا والبلقـان ثم القسطنطينية ثم اسيا الصغرى الى ان تنتهي في البصرة العراقية على شواطىء الخليج الفارسي . وكان القصد من ذلك السيطرة على التجارة في جنوبي اسيا الذي كان في ذلك الوقت لا يزال تحت النفوذ الانكليزي . ونجح الالمـان في سعيهم نحو غايتهم حتى وصلوا الى بُعد ٤٠٠ ميل من بغداد . وكانت الحكومـة الانكليزية غافـلة عن المساعي الالمانية فلم تكترث للامر اولاً بالرغم من ان اورنس كان ينبهها الى الاضرار التي تلحق بانكلترة من جراء سكة حديدية المانية كهذه ولكن صغر سن لورنس كان عائقاً له فلم تسمع لهُ الحكومة الانكليزية ولم تعره اقل اهتمام ولكن اراد لورنس ان يعمل منفرداً فقام بعمل على سابيل التفكهة وهو انهُ اخـذ عدة انابيب ووضعها على بغال وذهب بها ليلاً الى تل يشرف على المكان حيث كان المهندسون الالمانيون يعملون

وركزها على الصخور هناك وكان مشهد الانابيب على تلك الصخور يشبه المدافع فظن الالمان ان الانكليز يحصنون ذلك التل فارسلوا رسائل الى برلين والاستانة يعلمون الحكومتين بالامر

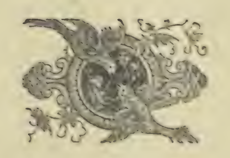
ولم يكن للمهندسين الالمانيين من الحكمة في معاملة الوطنيين ما كان للورنس ولهذا كان عليهم ان يقاوموا صعوبات كثيرة واضراباً عن العمل ومرة قام الفعلة على رؤسائهم الالمان يطلبون قتلهم واذ عرف لورنس بالامر ذهب الى مخيم الالمان وتمكن بدهائهِ وحكمتهِ من تهدئة غضب الفعلة الوطنيين وارجاعهم الى العمل

ومما يروى عنهُ في ذلك الوقت انهُ اذ كان مرة يتجول في البلاد وكان يلبس لباساً عربياً شاهد في الصحراء رجلاً غريباً فتقدم اليهِ وسأَلهُ الطريق فارشده اليها ذلك الرجل الغريب ولكن لما ادار لورنس ظهره ومشى هجم عليهِ ذلك الرجل وطرحه الى الارض واذ كان لورنس تعباً لم يقدر على المقاومة في وجه ذلك الكردي الجبار فاستسلم لهُ فاخذ هذا مسدساً من جنبهِ ووضع فوهتهُ في اذن لورنس وضغط على زنبرك المسدس فلم ينطلق فطرح المسدس جانباً وانهال على لورنس بالضرب بالحجارة حتى تركهُ مغمياً عليهِ فسلبهُ ما كان معهُ وتركهُ لشانهِ وبعد مدة قصيرة افاق لورنس من غيبوبتهِ ووصل الى قرية مجاورة واخبر شيوخها بالامر وكانوا يحترمونهُ ويحبونهُ فارسلوا رجالهم في اثر اللص فقبضوا عليهِ وارجعوا للورنس امتعتهُ وانهالوا على اللص بالضرب حتى تركوه بين حي وميت

ومرة اخرى كان يتجول في الصحراء فصادف مروره مرور جماعة من اللصوص قطاع الطرق فالقوا عليهِ القبض وسلبوه اشياءه ثم اقتادوه الى مأواهم في قمة جبل مجاور وهناك تركوه يحرسهُ اثنان من جماعتهم والآخرون ذهبوا لقطع الطريق.

ولما كان الظهر واشتد الحر تناول الخفراء الغداء واستسلم احدهم لسلطان النوم واما الثاني فكان خارجاً يتمشى ذهاباً واياباً ولما ادار ظهره هجم عليهِ لورنس وكمَّ فاه ثم هرب من سجنهِ ومعهُ بندقيتان وعدد من الخرطوش وكمن وراء صخر عال فلما جاءت الجماعة وعرفت بالامر سعت وراءه للقبض عليهِ فكان يطلق عليها رصاص بندقيتهِ دون ان يخطىء حتى اجهز على كثير من العصابة والباقون هربوا من امام رصاصهِ فنجا بنفسهِ

هذا ما روي عن ذلك الرجل في رحلتهِ الثانية الى الشرق واما ما رواه عنهُ الآخرون من الاخبار والقصص التي حدثت لهُ مع الجيش العربي اثناء الثورة فسنأتي على ذكره في مقالات تالية . وان يكن ما ذكرناه الآن يدعو الى الدهشة فان ما سنذكره افعل في النفس وادل على صبر واحتمال وحكمة ودهاء



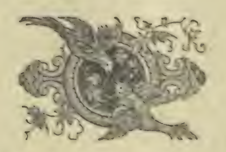
٣

اجتماع لورنس بفيصل لاول مرة

مما لا يخفى على القارئ. ان الشريف حسين ابن علي واولاده وهم فيصل وزيد وعبد الله وعلي يمتون بالنسب الى النبي العربي ولهذا كانوا يشعرون انهم اولى بالخلافة من الاتراك المغتصبين وكانوا يتحينون الفرص للتخلص منهم وتحرير الشعوب العربية من جور الحكم التركي . وما جاء صيف سنة ١٩١٤ حتى أُعلنت الحرب الاوربية الكبرى بين الحلفاء من جهة ودول الاتفاق من جهة اخرى وكانت تركيا في جانب دول الاتفاق فاخذ الشريف واولاده يخابرون الانكليز للقيام بثورة عربية واسعة النطاق يطردون بها الاتراك من العراق وجزيرة العرب وفلسطين وسوريا ثم يؤلفون دولة عربية ذات خلافة اسلامية فتمت الصفقة بين الانكليز والعرب وفي السنة ١٩١٥ هب الحسين واتباعهُ فثاروا على الاتراك واحتلوا عنوة مكة والطائف وجدة . والمدينة الاولى هي احد الحرمين وهناك ولد النبي محمد والثانية مدينة واقعة شرقي مكة والثالثة ميناء مكة على البحر الاحمر وهي حلقة الوصل بين الحجاز والعالم الخارجي . وذلك لانهُ محظور على اي كان من المسيحيين الدخول الى مكة كما انهُ من الخطر الشديد ان يسافر مسيحي ما في فلوات البلاد العربية ما لم يكن مجهزًا

ولما كان الظهر واشتد الحر تناول الخضراء الغداء واستسلم احدهم لسلطان النوم واما الثاني فكان خارجاً يتمشى ذهاباً واياباً ولما ادار ظهره هجم عليهِ لورنس وكمَّ فاه ثم هرب من سجنهِ ومعهُ بندقيتان وعدد من الخرطوش وكمن وراء صخر عال فلما جاءَت الجماعة وعرفت بالامر سعت وراءه للقبض عليهِ فكان يطلق عليها رصاص بندقيتهِ دون ان يخطىء حتى اجهز على كثير من العصابة والباقون هربوا من امام رصاصهِ فنجا بنفسهِ

هذا ما روي عن ذلك الرجل في رحلتهِ الثانية الى الشرق واما ما رواه عنهُ الآخرون من الاخبار والقصص التي حدثت لهُ مع الجيش العربي اثناء الثورة فسنأتي على ذكره في مقالات تالية . وان يكن ما ذكرناه الآن يدعو الى الدهشة فان ما سنذكره افعل في النفس وادل على صبر واحتمال وحكمة ودهاء



٣

اجتماع لورنس بفيصل لاول مرة

مما لا يخفى على القارىء ان الشريف حسين ابن علي واولاده وهم فيصل وزيد وعبد الله وعلي يمتون بالنسب الى النبي العربي ولهذا كانوا يشعرون انهم اولى بالخلافة من الاتراك المغتصبين وكانوا يتحينون الفرص للتخلص منهم وتحرير الشعوب العربية من جور الحكم التركي . وما جاء صيف سنة ١٩١٤ حتى أعلنت الحرب الاوربية الكبرى بين الحلفاء من جهة ودول الاتفاق من جهة اخرى وكانت تركيا في جانب دول الاتفاق فاخذ الشريف واولاده يخابرون الانكليز للقيام بثورة عربية واسعة النطاق يطردون بها الاتراك من العراق وجزيرة العرب وفلسطين وسوريا ثم يؤلفون دولة عربية ذات خلافة اسلامية فتمت الصفقة بين الانكليز والعرب وفي السنة ١٩١٥ هب الحسين واتباعهُ فثاروا على الاتراك واحتلوا عنوة مكة والطائف وجدة . والمدينة الاولى هي احد الحرمين وهناك ولد النبي محمد والثانية مدينة واقعة شرقي مكة والثالثة ميناء مكة على البحر الاحمر وهي حلقة الوصل بين الحجاز والعالم الخارجي . وذلك لانهُ محظور على اي كان من المسيحيين الدخول الى مكة كما انهُ من الخطر الشديد ان يسافر مسيحي ما في فلوات البلاد العربية ما لم يكن مجهزاً

بالتوصيات من اولياء الامر هناك فقناصل الدول الاوربية يسكنون جدة وفيها يقيم الشريف حسين مفوضاً من قبلهِ لاتمام المعاهدات والاعمال السياسية بينهُ وبين الدول الاجنبية واذا قتضت الحال يترل بنفسهِ ثم يعود الى مقره الرئيسي في مكة

وكان الجيش الانكليزي المخيم في مصر يقدم للثوار العرب في اول الامر الذخائر الحربية من بنادق ورصاص وقذائف فمضت السنة الاولى ولم يتمكن العرب من الاستيلاء على غير هذه الامكنة الثلاثة لا بل كانت قوتهم تضعف الى درجة اصبح يخشى معها رجوع الاتراك والتسلط على البلدان العربية

ولكن كان بين الضباط الانكليز في مصر جماعة رات انهُ اذا اهتمت الحكومة الانكليزية للثورة العربية كان لها من ورائها فائدة عظيمة فاستعملت هذه الجماعة ما لديها من سلطان لاقناع المفوض السامي الانكليزي في مصر ان يوفد الى جدة كاتبهُ الاول في دائرة الاعمال الشرقية فنجحوا في مهمتهم وارسلوا رونالد ستورس على ظهر باخرة الى جدة ليقابل مفوض الشريف ويتباحث معهُ في شأن الثورة العربية

وكان بين الضباط الصغار في مصر رجل اسمهُ لورنس فهذا كان صديقاً حميماً لستورس اذ ان الاثنين قضيا معاً زمن التلمذة في جامعة اكسفورد فلما علم لورنس برحلة ستورس الى جدة طلب من رؤسائهِ اجازة اسبوعين فنجح في طلبهِ ورافق صديقهُ ستورس الى جدة وكان في ذاك الحين لا يعلم شيئاً عن الثورة العربية سوى ما كان يقع على مسامعهِ من اخبارها مصادفة

وما كادت السفينة تلقي مراسيها في ميناء جدة حتى خف الشريف عبد الله ابن الحسين الى مقابلة ستورس مندوباً من قبل ابيهِ فاجتمع الاثنان وتباحثا في امر الثورة وحالة الجيوش العربية وكان لورنس يصغي بانتباه وعند نهاية الحديث راى بثاقب نظره انهُ اذا قيض للعرب قائد فيهِ الصفات التامة للقيادة تمكنوا من الانتصار على الاتراك دون صعوبة ولكن من اين لهُ هذا القائد فهو ليس في شخص عبد الله لان

هذا رجل طلق المحيا باسم الثغر لين العريكة حسن المعشر ولكنهُ ليس ذا قوة يسيطر بها على اتباعهِ ويحملهم على خوض غمرات الحروب

وعرف اثناء الحديث ان للشريف اولاداً اخرين هم فيصل وزيد وعلي فقرر على الاجتماع بهم ليتعرف اليهم شخصيا وطلب من عبد الله ان يسمح لهُ بزيارة معسكر فيصل في داخل البلاد فاجابهُ هـذا انهُ لا يجوز ذلك فقال لهُ لورنس ونفسهُ تشتعل شوقاً للاسفار في البلدان العربية انهُ لاسهل على الجيش العربي ان يحصل على مساعدة الانكليز اذا كان هؤلاء يتلقون اخبار الثورة من شاهد عيان سمع الاخبار وتحققها بنفسهِ . فلانت قناة عبد الله امام هذا القول وقال لـهُ تمهل ريثما اخاطب ابي وهنا لا بد من ان نخبر القارىء ان الشريف الحسين كان قبل ذلك قـد استدعى مهندسين مسلمين من مصر ومد سلكاً تلفونيا بين مكة وجدة فرفع عبد الله التلفون الى فمهِ وسأل اباه عن امكانية سفر لورنس الى معسكر فيصل فاجاب بالسلب وكان الشريف حديدي الراي يصعب اقناعهُ فعبثاً حاول الابن ان يقنع الاب ولكن لم يرد لورنس ان يبقى السهم الاخير في جعبتهِ فطلب الى ستورس ان يتوسط لهُ لدى الشريف وبعد جدال طويل بين مندوب المفوض السامي الانكليزي وبـين الشريف حسين رضي هذا ان يسافر لورنس لمقابلة فيصل في معسكره

وما طال الوقت حتى كان لورنس على ظهر هجينهِ يقطع المفاوز في الصحراء والى جنبهِ عدد من الخدم الى ان وصل الى معسكر فيصل فتعرف اليهِ وخاطبهُ فرأى فيهِ الشخص المطلوب وراى ايضاً ان فيصلاً كان يبغي جمـع جيش عظيم كاف لانتزاع المدينة المنورة من يد الاتراك ولكن لم يتحقق ما كان يحلم بهِ واخذ العرب الملتفون حولهُ ينسحبون الى قراهم الواحد بعد الآخر وكان الاتراك في الشمال يعدون العـدد لاسترجاع ما خسروه من البلدان العربية

لم يالف العرب الحروب المنظمة ولا تعودوا النزال في وجه جيش دولي يزحف

ثابتاً ولكنهم يعرفون الغزو فيهجمون الهجمة الاولى كالاساد ولا يرجعهم عن قصدهم قوة ولو كانت قوة الجان ثم تسكرهم خمرة النصر فيكتفون بالغنيمة والسلب ويرجعون الى مقرهم . ولا يخفى ان هجمات كهذه لا تعود بفائدة في وجه جيش زاحف او جيش يهاجم المدن والحصون ولهذا كان اتباع فيصل في سأم من هذه الحالة وكانوا ينسلون خفية الى قراهم تاركين لرئيسهم عدداً قليلاً من اتباعهِ المخلصين

ولم تكن هذه الحالة لتثني عزم لورنس بل قرر ان يوجد من العرب قوة لمناضلة الاتراك واضعافهم ولم يقصد في الدرجة الاولى انالة العرب استقلالهم بل ان يخفف عن الحلفاء قوة الاتراك في الساحات الاخرى الحربية . واظهر ميلهُ الشديد الى الثورة العربية ووعد فيصلاً بالمساعدة الانكليزية الجدية بعد ان راى فيهِ القائد الحقيقي لتلك الثورة التي سيقومون بها كما ان فيصلاً راى في وجه لورنس علامات الثبات والذكاء فتمكنت بين الاثنين اواصر الصداقة ورجع لورنس الى رؤسائهِ وفي نفسهِ اشياء عن الثورة العربية فاقنعهم بوجوب مساعدة السكان في الصحراء ولفت انظارهم الى اهمية الثورة المذكورة في ماجريات الحرب الكونية وتاثيرها على الساحات الاخرى

ولما اختلى لورنس بنفسهِ بعد رجوعهِ من معسكر فيصل اخذ يفكر في الخطة التي سيتبعها في محاربة الاتراك فقرر على طردهم من كل شواطىء البحر الاحمر ثم السير شمالاً الى «الوجه» ثم «العقبة» ثم قطع خط الرجعة على الاتراك المقيمين في «المدينة» وما جاورها من القرى

وبعد ان وثق لورنس من ان رفاقهُ القواد في مصر اصبحوا يرون رايهُ في الثورة رجع الى صديقهِ فيصل ليمده بالآراء والخطط وليبعث في جيشهِ امل الحياة بعد اليأس والفشل . وكان يعمل في الجيش العربي كنفر بسيط حسب الظاهر ولكن في الحقيقة كان حلقة الوصل بين فيصل والانكليز وكان العامل القوي في اثارة حماسة العرب مدة السنتين اللتين سكن اثناءهما بينهم

وفي هذه المناسبة لا يسعنا الا القول ان الحالة التي كانت فيها جيوش فيصل عند زيارة لورنس المعسكر لاول مرة وروح اليأس التي كانت مخيمة عليها وانعاش الامال بالفوز والمساعدة الانكليزية كل ذلك حدانا الى دعوة لورنس موقد نيران الثورة العربية ولا احد ينكر انهُ كان حجر الزاوية في بناء نجاحها كما سنرى في المقالات التالية

٤

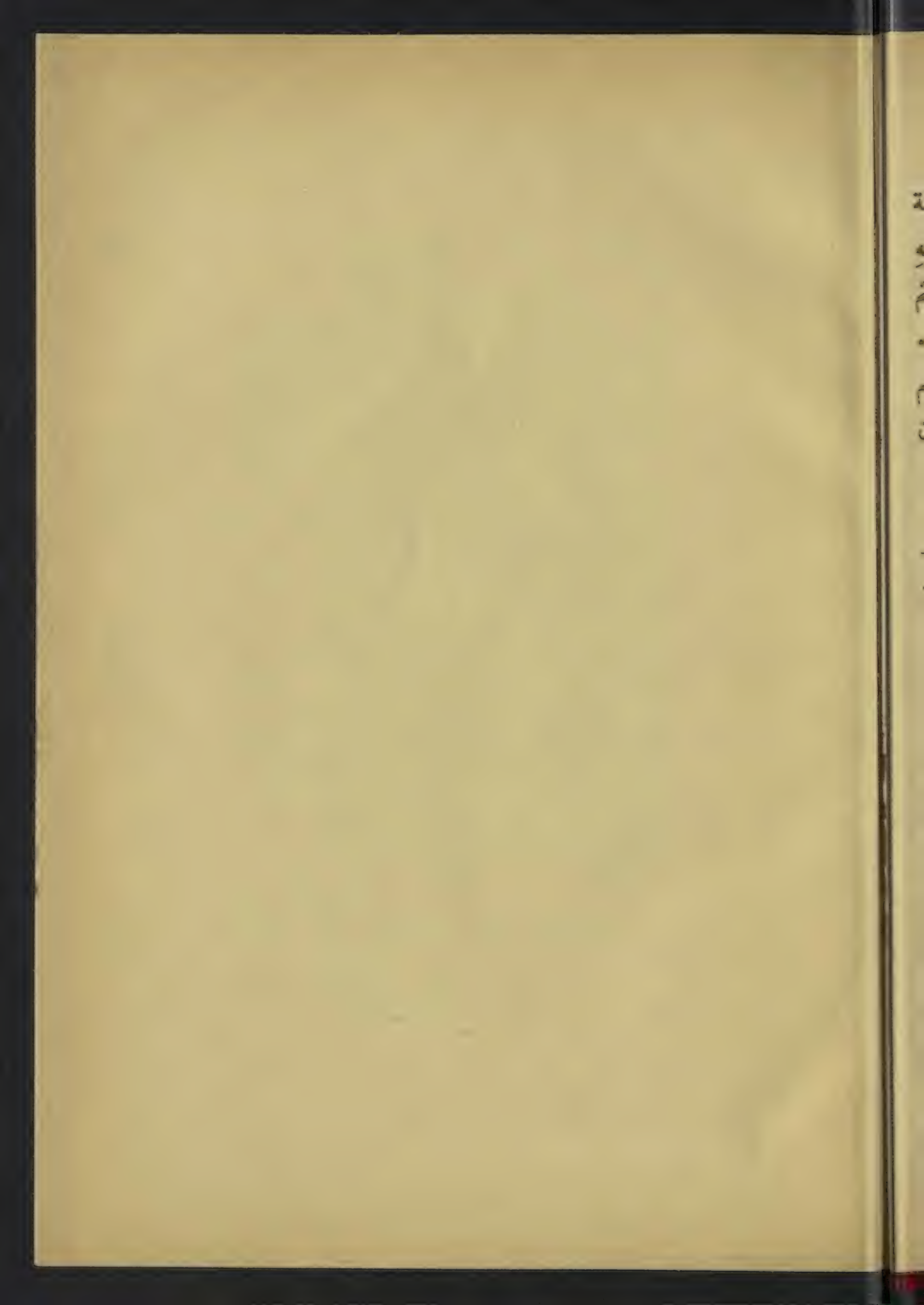
احتلال الرابغ والينبع والوجه

ذكرنا في المقال الماضي ان لورنس وضع خطة حربية كان عليهِ اذا تتبعها حركة فحركة ان يحول القوة العربية الى شواطىء البحر الاحمر فيحتل بها الموانىء المنتشرة هناك من جدة في الجنوب الى العقبة في الشمال وفي الوقت نفسه اراد ان يترك فصيلة من الجيش العربي في داخل البلاد ليوهم الاتراك ان القوة العربية متجهة الى المدينة . وبعد ان عزم على اتباع هذه الخطة اعلنها على رؤسائهِ وعلى الامير فيصل فوافقوه عليها .

وكان الجيش التركي في ذلك الوقت يزحف جنوباً من المدينـة لاسترجاع مكة وجدة ولهذا ارسل لورنس زيداً اصغر انجـال الشريف حسين مـع جماعة من اتباعهِ لمناوشة الاتراك على الطريق ولايهامهم ان القوة العربية مرابطـة حول مكة . ثم زحف الامير فيصل ووراءه الجيش العربي متجهاً الى الشمال الى ان قرب الى الميناء الاول في الشمال بعد الوابغ وهو ميناء الينبع ولما سمعت الحاميـة التركية بقدوم الجيش العربي ولت هاربة لا تلوي على شيء. فدخل الجيش العربي مدينة الينبع دون مقاومة ولم تهرق هناك نقطة واحدة من الدم

ولما استقر المقام بالجيش العربي بدا لورنس بدرس الخطة لاحتلال الميناء الاخر الشمالي بعد الينبع وهو ميناء « الوجه » وبما ان الحامية التركية كانت اقوى من تلك في الينبع كان لا بد من الاستعانة بالاسطول الانكليزي الذي كان مرابطاً في البحر الاحمر فسعى لورنس لدى الاميرال وتمكن من حمل قواد المدرعات على الاشتراك في العمل فاتفقت القوتان البرية والبحرية على اللقاء في مكان يقرب من « الوجه » يدعى حبان وهناك تلقي المدرعات قذائفهـا من البحر والجيش يهاجم المدينـة من البر فيتم النصر على اهون سبيل

فسار الجيش من الينبع الى نخل المبارك ثم وادي أُويس ثم بير الوحيدة ثم سمنة ثم ابو زريبات ثم القرنة وبسبب صعوبة السفر في الصحراء تاخر وصول الجيش البري الى المكان مدة يومين فقط فخاف لورانس ان تفشل الخطة وترتد القوة البحرية المهاجمة اذا هي تفردت وحدها بالهجوم ولكن ما العمل وليس من طريقـة للاستعاضة عن اليومين اللذين خسرهما الجيش في سفره ولما اقترب فيصل وجيشهُ الى شرم حبان سمع اصوات المدافع المتواصلة فايقن اذ ذاك ان المدرعات البحرية لم تنتظر وصول الجيش بل استقلت في العمل . وهنا لا بد لنـا من ان نذكر كلمة عن زحف الجيش العربي





جلالة الملك فيصل ملك العراق حالياً
وقائد الثورة العربية في وجه الاتراك سابقاً
والصورة تمثله بلباسه العربي اثناء الثورة

على مدينة الوجه عندما سمع اصوات المدافع البحرية وذلك حسب ما ذكره لورنس نفسهُ

زحفنا في جيش يبلغ الآلاف عدداً ودخلنا وادياً سقطت عليهِ امطار كانون فاسرع وعلاهُ كساء اخضر من العوسج الذي نشأ من جانبي الطريق حتى كادت الاغصان تتصل بالاغصان وكان علينا ان نحني الرؤوس خوفاً من ان تفقأ عيوننا الاشواك النابتة في تلك الاغصان كما انهُ كان علينا ان نجمع ثيابنا تحت سوقنا لئلا تعلق بها فتمزقها ثم هبت في وجوهنا ريح صرصر كادت تذهب بابصارنا ولكن مع ذلك سار الجيش وكانت اصواتهُ تملا جنبات ذلك الوادي حتى صدق فيهِ قول المتنبي

خميس بشرق الارض والغرب زحفهُ
وفي اذن الجوزاء منهُ زمازم

وصلنا الى آبار ابوزريبات فالقينا عصا الترحال وانتثر عقدنا المنظوم فتفرق القوم جماعات جماعات وكان الليل قد ارخى سدولهُ فدقت الطنب وعلت النيران وساد الهرج والمرج . وبعد مدة اكتنفنا الضباب المتكاثف وهبط علينا حتى لاصق الارض واصبح بنور النيران كانهُ كساء احمر ثم علا الدخان اعمدة الى الفضاء كانهُ اساس بناء مشيد على جلبة الجيش غير المنظور تحت الضباب الكثيف وفي تلك الساعة اظهرت عجبي من قوة الجيش فقال عودة ابن زويد «هذا ليس جيشاً بل هو العالم باسره زاحف الى قرية الوجه» فسررت بهذا التصريح الذي يبعث الامل في الصدور

واذ كنا في تلك الليلة مجتمعين في خيمة الامير فيصل نتباحث في شؤون الثورة دخل علينا دون استئذان الشريف ناصر من شرفاء المدينة فوقف فيصل للقائهِ وطوق عنقهُ بذراعيهِ . وناصر هذا كان اول من اطلق بندقيتهُ اشعاراً باحتدام نار الثورة

وبقي كل هذه المدة اميناً في الخدمة الى ان كان الاخير في اطـلاق بندقيتهِ في بلدة مسلمية قرب حلب اي بعد انتهاء الثورة تماماً

وبعد ان مضى الهزيع الاول من الليل استسلمنا لسلطان النوم وفي صباح اليوم التالي استيقظنا من نومنا لمتابعة اعمال النهار وكان جلها ملقى على قائد الثورة العام الامير فيصل فكان يتلقى الرسائل ويجيب عليها بواسطة كاتبهِ الخـاص الى ان هجم الليل التالي بجيوشهِ . ثم في الصباح صدرت الاوامر بالزحف فسرنا النهار بكاملهِ مجتازين الاودية الى ان سدلت حجب الظلام وما كاد يستقر بنا المقام حتى سمعنا صوت هجوم عنيف من احد اطراف الجيش وبعد الاستعلام عن حقيقة الامر وجـدنا ان بعض الافراد من قبيلة جهينة المنضمة الى جيشنا قـد شاهدوا اباعر ترعى قرب المكان الذي انخنا فيهِ فتحركت في داخلهم غريزة الغزو فهجموا على تلك الاباعر واستاقوها الينا ولكن حالما علم فيصل بالامر وكان ذلك ساعة هجوم قبيلة جهينة امرهم بالرجوع فلم يرجعوا فاطلق عليهم النار ارهاباً فسقط احد الفرسان الهاجمين لكي يوهم رفاقهُ انهُ أُصيب فيرتدوا الى الوراء ولكن لم يجدِ ذلك نفعـاً وسار الهاجمون في طريقهم الى ان رجعوا بالغنيمة فلقيهم فيصل واعمل فيهم الضرب وامرهم ان يعيدوا المسلوب الى اصحابهِ فكان لهذا العمل احسن وقع في نفوس القبيلة المهاجمة وهي قبيلة «بلي» التي اصبحت من حلفائنا بعد ذلك

وفي صباح اليوم التالي اتجهنا نحو البحر لكي نستطلع اخبار المدرعة التي وعدتنا بجلب المياه الينا الى حبان لان المياه هناك كانت قليلة ولما اشرفنا على الشاطىء راينا المدرعة « هاردن » تنتظرنا وعنابرها ملآنة ماء عذباً فاخذنا نستقي منها بواسطة قوارب صغيرة فسقينا اولاً البغال ثم الجيش وبقي عدد من الرجال عطاشاً يحومون حول الاوعية طالبين المياه وكان قضي عليهم عطشاً لو لم يلبهم البحارة بما يبلل الشفاه على الاقل

وبعد ان هدأت الحركة وكان قسم من الجيش قد ارتوى وقسم اخر يعلل الامال

بمياه اكثر (وما اضيق العيش لولا فسحة الامل) ركبت زورقاً وذهبت الى ظهر الباخرة فاخبرني قائدها ان المدرعات البحرية رات ان الجيش البري قد تاخر عن موعده مدة يومين فخافت ان يعرف الاتراك بالامر فيهربون سالمين ولهذا تفردت في العمل فالقت القنابل ثم ارسلت قوة منها لاحتلال المدينة فقضي الامر على اهون سبيل

وكان قبل اطلاق القنابل ان جاء الى الحامية في الوجه احمد توفيق بك القائد التركي والتي عليها الاوامر ان تقاوم حتى آخر نقطة من دمها ثم ولى هارباً الى خارج منطقة الخطر وكانت الحامية تممت اوامره لو انها لم ترَ ان العدو يفوقها عدداً وكان عدد رجالها يبلغ المئتين فتركوا مراكزهم وولوا الادبار هاربين

ولما اتصلت هذه الاخبار بالجيش المخيم في البر اشتعلت في صدوره نار الحماسة وهب كرجل واحد للحرب والنزال فسار في طريقهِ نحو الوجه على غير انتظام وكان ذلك بعد انتصاف الليل وعند انبثاق الفجر وقفنا في الطريق وجمعنا الشمل وسرنا بانتظام كجيش مدرب وسير كهذا يصعب جداً على العربي الذي تابى نفسهُ التقيد بشيء ما حتى النظام ولما قربنا من المدينة وكانت المناوشات لا تزال سائرة بين القوة البحرية المحتلة وفرق الاتراك الهاربة رايت في جيشنا قبيلة عجيل يترلون عن مطاياهم ويعرون اجسادهم من المنطقة فما فوق ولما سالت عن السبب قالوا ان هذه القبيلة تلقى العدو على هذا الشكل لانهم يعتقدون انهُ اذا جرح الفرد وهو عار كان ذلك انظف لجرحه فلا يعود عليهِ خوف من الالتهاب . وكان مشهد هؤلاء الفرسان السمر الاجساد العراة الصدور والسواعد والرؤوس من ابهج المشاهد التي رايتها في حياتي . ثم تابعنا المسير الى ان دخلنا مدينة الوجه آمنين بفضل القنابل البحرية . ثم تفرق الجيش جماعات جماعات منها ما كان يستقر للراحة ومنها ما كان يسير للنهب والسلب وهذه كانت

الاكثرية كيف لا والعرب البدو يغزون لمجرد السلب والنهب فكيف بهم بعد النصر في معركة تركت امامهم الاسلاب غنيمة باردة

٥

مهاجمة العقبة

قلنا في المقال الاسبق ان الاتراك كانوا في ذلك الوقت قد اعدوا العدة وارسلوا فصيلة من الجيش وكتيبة من الفرسان لاسترجاع ما خسروه من الاماكن حول مكة والطائف وجدة وكانت هذه القوة التركية قسماً من الفيلق الرابع الذي كان مرابطاً

في سوريا وفلسطين تحت قيادة احمد جمال باشا السفاح التركي الذي رفع على اعواد المشانق اصدق الوطنيين من مسلمين ومسيحيين واهلك سكان لبنان جوعاً مع ان الحنطة كانت وافرة الكميات في داخلية البلاد .

وكانت القوة التي ارسلها الاتراك الى بلاد العرب تحت قيادة فخري باشا فاتجهت جنوباً موازية في سيرها الخط الحديدي الحجازي وكان قصدها الاساسي الاولي المحافظة على ذلك الخط لانهُ افضل الطرق التي تسهل لها ارسال المون والنجدات اذا اقتضت الحال . وبعد ان وصلت القوة في سيرها الى المدينة اجتازتها جنوباً نحو مكة ولما وصلت الى نصف الطريق بين الحرمين فاجأتها الانباء ان العرب الذين كان يظنهم الاتراك مرابطين حول مكة قد نحوا ناحية البحر الاحمر وضربوا في شواطئهِ شمالاً فاحتلوا الرابغ والينبع وام اللج والوجه ولم يبق امامهم الا العقبة . فقلقت افكار القائد التركي لهذه الانباء ووقف مدة لا يدري ماذا يعمل ايستمر في سيره الى محاصرة مكة ويترك وراءه القوة العربية تفعل ما تشاء وقد تقطع عليهِ خط الرجعة ام يرجع على اعقابهِ قانعاً من الغنيمة بالاياب ويحصن مركزه في الشمال حول المدينة ؟ واخيراً مال الى اتباع الفكرة الثانية فرجع بجيشهِ الى المدينة ليتمتع برياضها الغناء بعد ان قاسى الامرين في فلوات الصحراء وسباسبها وهكذا الحامية التركية التي كانت مرابطة في الوجه ولت الادبار هاربة الى الداخل ومنضمة الى جيش فخري باشا في المدينة وبعدت القوتان الواحدة عن الاخرى فبقي العرب في الوجه وتحصن الاتراك في المدينة . وساد السكون اياماً كانت فرصة مناسبة للورنس لان يرتاح من وعثاء السفر ويضع الخطط للمعارك القادمة . ولكنهُ عاد فرأى انهُ يجب عليهِ السفر الى مصر لاطلاع مركز القيادة العامة على ما يجري في تلك الاقطار النائية . وبعد ان اتم مهمتهُ واقنع الرؤساء الانكليز بوجوب مساعدة الثورة وبعد ان ابان لهم اهميتها قفل راجعاً الى مخيمهِ في الوجه فراى فيصلاً قد وطد قدمهُ في تلك الانحاء واكتسب الى

جانبهِ كل القبائل التي كانت مخيمة بين الوجه ومكة . واطلعهُ على ميل الانكليز في مصر الى مساعدة الثورة قدر ما تسمح لهم الاحوال فطرب الجميع لهذه الانباء وحولوا وجوههم شطر القبائل الشمالية لاكتسابها الى جانبهم

يسكن الى شمالي الوجه ثلاث قبائل عربية قوية يجب اكتسابها قبل المسير وهذه القبائل هي الحويطات وبنو عطية وعرب الرولا وما كاد لورنس وفيصل ينهيان الخطط للمعارك القادمة حتى دخل الخيمة رئيس عشائر بني عطيــة وهي اقرب الثلاث الى المخيم ثم جاء بعد ذلك الامير نوري الشعلان شيخ عرب الرولا وبقي عرب الحويطات مبهمي الموقف ومما زاد في الابهــام ان تلك القبيلة كانت منقسمة على نفسها بسبب فتنة اهلية ولكن لم يطل المقام حتى قدم الى مخيم فيصل رئيسا الحزبــين في عرب الحويطات وكان احدهما عودة رئيس ابي طي واشهر الفرسان بــين عرب البادية . فقبل فيصل كل هذه الوفود بكل رصانــة وتعقل واكتسبها الى جانبـهِ بالسياسة والمواعيد واقسمت هي امامهُ يمين الاخلاص للثورة العربية وعاقدوه على بذل دمائهم في سبيل الحرية

وبينما كان فيصل يحالف القبائل ويعقد معها المعاهدات ارسلت القيادة الانكليزية من مصر الى الوجه قائدين انكليزيين احدهما المهندس الخبير نيو كومب والثاني القائد الشجاع غارلند فهذان حالاً اخذا معهما جندياً عربياً مشهوراً بشجاعتــهِ وبسالتهِ اسمهُ مولود وضموا اليهم فرقة من العرب وساروا شرقاً الى الخط الحديــدي شمالي المدينة واخذوا يناوشون الاتراك هناك فيقطعون الخط ثم يرتدون الى الصحراء وبعــد ان اقلقوا راحة الاتراك مدة وقع المهندس نيو كومب في الاسر ورجعت القوة الصغيرة الى مقرها الاساسي في الوجه

وضع لورنس وفيصل خططاً كثيرة لمهاجمة الاتراك ولكنها لم ترقهما وبينما لورنس ذات يوم مستغرق في الفكر فتقت لهُ خطة جديدة فصرخ من فرحــه كما صرخ

ارخميدس (عندما كان يعمل في حل المعضلة الناتجة عن ان الاجسام في الماء اخف منها في الهواء وبينما هو في الحمام واضع ساقيهِ في المـاء فتق لهُ الحـل فصرخ « وجدتهُ وجدتهُ ») والى القارىء الخطة التي فتقت للورنس فاستطارت نفسهُ فرحاً

عرف لورنس ان الجيش العربي مؤلف من جنود لا يعرفون الحروب المنظمة ولا الثبات في وجه الجيوش مدة طويلة ولكن من الجهة الثانية هم اقوياء الشكيمة اشداء الباس في المعارك التي لا تستغرق وقتاً طويلاً ولهذا قرر على محاربة الاتراك حرباً غير منظمة فيهاجمهم هنا ثم يرتد الى مكان آخر فيهاجمهم فيهِ ثم يختفي عن الانظار بغتة ثم يظهر في مكان ثالث وبهذه الطريقة يضطر الاتراك الى ابقاء عدد وافر من الجنود منتشرين في مساحة واسعة تجب عليهم حمايتها ٠ وهذا يضعف القوة كثيراً ٠ وفضلاً عن ذلك فانهُ كان بامكان لورنس ان يحارب الاتراك شمالي المدينة ويقطع عليهم خط الرجعة فيضطرون الى اخلاء المدينة المنورة ولكنهُ لم يرد ذلك بـل فضل ان يبقي الاتراك محافظين على احد الحرمين والخط الحديدي وان يواصلوا ارسال المؤن والذخائر حتى اذا ما احتاج الجيش العربي الى شيء هاجم القطر السائرة جنوباً واخذ منها مـا يحتاج اليهِ ثم ترك لها الطريق مفتوحة . هذه هي الخطة التي قرر لورنس على اتباعهـا وهي التي اوصلتهُ الى النصر النهائي

ان الناظر الى الخارطة يرى ان البحر الاحمر في طرفـهِ الشمالي ينقسم الى قسمين تمتد بينهما الى البحر صحراء سيناء فالقسم الغربي هو خليج السويس والترعـة حيث تمر البضائع بين القارتين اسيا من جهة وافريقيا الشماليـة واوربا من جهـة ثانية والقسم الاخر كان مشهوراً في الايام الماضية واما الآن فقـد نسجت عناكب الاهمال عليـهِ خيوطها حتى اصبح وليس فيهِ الا مدينة نائية لا تمر بها البواخر الا نادراً وهي مدينة العقبة

من مضي الآف السنين كانت هذه البقعة من الارض مسرحاً للبواخر والتجارة ٠

هنا كانت اساطيل سليمان تلتقي مراسيها ومن هنا كانت تُقلع مسافرة الى هندوستان وبلاد كاثاي (اسم قديم لبلاد الصين) لتجلب منها البضائع والاموال

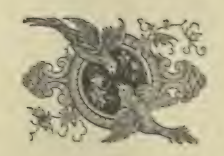
وفي ذلك الخليج بنى الاتراك في السنة الاولى من الحرب الحصون والقلاع وجعلوها مرجعاً للجيش الذي اعدوه للهجوم على مصر ووضعوا على جبل يشرف على مدينة العقبة المدافع البرية القوية حتى انهُ اصبح من المستحيل الاستيلاء على المدينة من البحر ولم تكن مناعتها بحرًا اقل منها برًا لان المدينة واقعة في صحراء ولا يوصل اليها الا من مضيق جبلي حصنهُ الاتراك جيدًا ووضعوا فيه الحامية الكافية ولسهولة تحصين المكان ولانهُ على ابواب ترعة السويس ومصر كان من اهم المواقع الحربية في الشرق الادنى . الى هذا المكان حول لورنس انظاره وقرر على الاستيلاء عليهِ بخطة حربية لا تفقده عددًا وافرًا من الجنود

في اوائل شهر ايار السنة ١٩١٧ جرد لورنس حملة من جيشهِ البدوي للقيام بغزوة تتوقف على نجاحها نهاية الثورة وكان القائد لهذه الحملة الشريف ناصر يسير الى جنبهِ الكولونل لورنس وعودة . سار الجيش لا يحمل زادًا سوى ما كان يضعهُ كل فارس في سرج مطيتهِ كما انهُ لم يكن هناك ضباط متشحون بالبزات العسكرية اللامعة بل كان الجميع يلبسون الكوفية والعباءة حتى القائد نفسهُ كان يرتدي لباساً بسيطاً يماثل لباس اصغر جندي في الحملة

بين سوريا وشمالي الحجاز يمتد خط حديدي يبتديء في دمشق وينتهي في المدينة وقد بنى الاتراك هذا الخط مدعين انهُ واسطة لتسهيل زيارة الحرمين على الحجاج ولكن الغاية الحقيقية منهُ ارسال الجنود الى البلاد العربية اذا اقتضت الاحوال . واهم محطة على ذلك الخط شمالي المدينة هي معان ولكي يوهم لورنس الاتراك انهُ يقصد مهاجمة معان لا العقبة اتجه نحو الخط الحديدي بالقرب من معان وهناك وضع تحت الخطوط الحديدية كمية من الديناميت واوصل اليها شرارة كهربائية من جهاز

خاص فانفجر الديناميت مقتلعاً الصخور ومرسلاً الحديد والتراب الى الهواء واذ كان ذلك اول مرة راى عودة فيها الديناميت رقص طرباً واخذ يغني ويزغرد ثم تراجع الجيش المؤلف من الف هجان تقريباً ودقوا الطنب في وادي سرحان وهنا لا بد لنا من ان نذكر للقارىء ان الرحلة من الوجه شمالاً كانت صعبة جداً ليس على لورنس فقط بل على العرب انفسهم اذ كان عليهم ان يقطعوا مفازات لا ماء فيها ولا نبات وكان على الرجال والجمال ان يقضوا اياماً عديدة طويلة دون ان يشربوا شراباً او ياكلوا طعاماً وبعد مسير اسبوعين وصلوا وادي سرحان حيث كان عرب الحويطات مخيمين وهم قبيلة عودة الذي كان يرافق الحملة. بقي الجيش في ضيافة عرب الحويطات عدة ايام ثم تابعوا المسير غرباً نحو العقبة ومروا في بلاد تقطنها عدة قبائل عربية مختلفة الاميال والمشارب ولا رابط بينها او مشابهة سوى طريقة معيشتهم وهنا هجمت فرقة من الجيش على حامية تركية في احدى المحطات تدعى الفويلحة وقتلتها عن بكرة ابيها واذ علم القائد التركي بذلك ارسل نجدة من معان للاخذ بثار حامية الفويلحة والقضاء على القوة العربية التي كان يعتقد حينذاك انها ستهاجم معان نفسها ولكن الجيش العربي تغلغل في قلب الصحراء واختفى عن الابصار وبعد ان جالت المفرزة التركية في الصحراء خيمت في مكان يدعى ابا اللسان حيث توجد عدة ابار وعرفت الكشافة العربية بمخيم الاتراك في ابي اللسان فجاؤوهم ليلاً واحاطوا بهم من الجهات الاربع واخذوا يلقون عليهم الرصاص من وراء الصخور فكان الاتراك يسقطون اثنين اثنين دون ان يروا للعدو من اثر فقلق القائد التركي لذلك وقرر على اختراق خط العدو والنجاة بما بقي معهُ من الجنود. وكان النهار حاراً جداً والمحاربون من الفريقين في اشد الحالات عطشاً وتأثراً من الحرارة وبينما هم في تلك الحالة جاء عودة فرأى لورنس يتفيا ظل صخر عالٍ فاخبره عن شجاعة عربهِ الحويطات في هذه المعركة فاجابهُ لورنس مازحاً «اجل هم يطلقون رصاصاً كثيراً ولكنهم لا يصيبون الهدف

وبذلك نخسر الذخائر ولا نستفيد بها». فاثر هذا الكلام في نفس عودة الذي اخذ يرغي ويزبد ثم دعا رجالهُ وامرهم ان يعتلوا متون الهجان فائتمروا بامره ثم سار امامهم هاجماً نحو مخيم الاتراك ولما راى لورنس ذلك دعا الرجال الاخرين ايضاً وامرهم ان يتبعوا عودة ورجاله ففعلوا وكان لورنس في مقدمتهم معتلياً ظهر مطيتهِ وبيده مسدسهُ وبينما هم هاجمون انطلق المسدس خطأ واصاب راس البعير الذي كان راكباً عليهِ فسقط الحيوان كأنهُ حجر جامد وسقط لورنس امامهُ واجتازتهُ مطايا الهاجمين ولو لم يسقط امام الحيوان الميت لكان قضي عليهِ تحت اخفاف الاباعر الهاجمة كالسهام المنطلقة



٦

الاستيلاء على العقبة

انجلى النقع واسفرت المعركة عن انهزام الاتراك وخرج عودة من ميدان الكفاح منصوراً فاخذتهُ هزة الطرب وغدا يصيح ويزغرد منشداً مديح رجالهِ وشجاعتهم ثم أقبل الى لورنس وذكره بالكلام الذي وجههُ اليهِ قبل المعركة ٠ والحق يقال ان الشجاعة التي ابداها عودة ورجالهُ في معركة ابي اللسان تدعو الى الاعجاب فانهُ خرج من المعركة وثيابهُ ممزقة برصاص العدو وقد سقط تحتهُ جوادان ولكنهُ لم يصب باذى مطلقاً ٠ ولو ان المتنبي رآه في تلك الحال لكان انشد فيهِ بيتيهِ المشهورين

وقفتَ وما في الموت شك لواقفٍ
كانك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الابطال كلمى هزيمة
فوجهك وضّاح وثغرك باسم

وسقط من العرب في تلك المعركة قتيلان فقط واحد من عرب الرولا والاخر

من بـني شراري « وبعد السلب والنهب اسرنا من بقي من الاتراك حيا ودققنا الطنب للراحة ولكن لم يمض الوقت الطويل حتى اقبل الينا عودة يصيح بنا الا نقيم في المكان طويلًا بل ان نجد في السير خوفاً من ان يرجع الينا الاتراك بقوة عظيمة للانتقام او يظننا عرب الحويطات جيش العدو فيصلينا نارًا حامية. وبعد الاخذ والرد تمكن عودة من اقناعنا بالرحيل مع اننا كنا بحاجة شديدة الى الراحة بعد تلك المعركة الحامية الوطيس

سرنا كل ذلك الليل الى ان ظهر الصباح — وعند الصباح يحمد القوم السُّرى — واذ كنا قد خسرنا نحو عشرين جملًا في المعركة والجمال الباقية اصبحت ضعيفة وعاجزة عن حمل ما كانت تحملهُ الجمال المفقودة اضطررنا الى اخذ من كانت جروحهم غير خطرة من الاتراك وتركنا للقضاء والقدر نحو عشرين جريحاً خطراً قرب نهر عذب المياه وجمع ناصر لهؤلاء الجرحى اردية واغطية ترد عنهم برد الليل القارس وتركناهم لشأنهم يتألمون .

ان العربي يعتقد ان افضل شيء في الغنيمة هو ارتداء ملابس العدو ولهذا اصبح جيشنا الآن كأنهُ جيش تركي منظم بما كان على افراده من الالبسة التركية التي نزعوها عن الجرحى والموتى الاتراك

على ان النصر لا يقوم على ربح المعارك فقط ولكنهُ يقوم ايضاً على توفر الزاد لدى الجيش المحارب وبعد ان سرنا في الصحراء مسافة وكان عددنا قد تضاعف تقريباً راينا اننا سنموت جوعاً اذا لم نتدبر الامر ومن اين ناتي بالقوت لجيش كهذا مؤلف من محاربين وجمال واسرى يعدون بالمئات وكنا حين سرنا للمعركة نحمل من الزاد ما يكفينا مدة قصيرة فقط وبعد اعمال الفكر رايت ان نهاجم اقرب مخيم تركي وقر

قرارنا على التوجه الى العقبة والاستيلاء عليها اذ لا شك اننا اذا فزنا نجد فيها من الزاد ما يكفي جيشنا مدة طويلة

ولكن هل الاستيلاء على العقبة سهل ودونـهُ معاقل وحصون ومفاوز صخرية فضلاً عن ان العقبة اهم ميناء على شواطىء البحر الاحمر والاستيلاء عليها قد يغير تاريخ الشرق الادنى ولهذا قد يكون ان الاتراك قد جمعوا فيها قوة لا يستهان بها فعمدت الى الخريطة ووجدت ان بيننـا وبين العقبة حصوناً ثلاثـة مهمة الاول الغويرة والثاني الكثيرة والثالث حدره . زد الى هذه كلها المفاوز الجبلية المحجرة التي يصعب اجتيازها ولكن المثل يقول « اذا لم يكن لك ما تريد فأرد ما يكون » ولم يبق امامنا الا اتباع الخطة القاضية بمهاجمة العقبة فاذا نجحنا كان النصر حليفنـا واذا فشلنا فاننا لا نخسر شيئاً اذ اننا على كل حال معرضون للموت جوعاً بسبب قلة الزاد

وكان بين الاسرى ضابط لم يكن على وفاق مع الاتراك فسر بالاسر وقـدم نفسهُ ترجماناً وكاتباً لنا فاكرمناه واحسنا معاملته وكان يكتب لنا الرسائل التي ارسلناها الى قواد المعاقل الثلاثة طالبـين اليهم ان يستسلموا والا فـلا نكفل لهم الحياة اذا حمي وطيس المعركة ولكن اذا سلموا لنا الآن اكتفينا باخـذهم اسرى وابقينا على حياتهم وارسلناهم الى مصر امنين

وكان قرب الغويرة ابن جاد وهو شيخ يرأس قبيلة قوية وكان يترجح بين القوتين التركية والعربية واذ كنا نحن المنتصرين في المعركة الاخيرة انضم الى جيشنا واسر القوة التركية التي كانت مخيمة هناك فخفف عنا عناء محاربتها وجاء الينا بكلام مدح وتبجيل واخبرنا ان الاتراك وعددهم مائة وعشرون اصبحوا اسراه

وبقي بيننا وبين العقبة حاميتان اقربها الينا (الكثيرة) وقد رفضت طلبنا اليها

بالاستسلام فعزمنا على الحرب واشرنا الى ابن جاد ان يقوم بالهجوم ليكون لهُ ذلك الشرف الاسمى ولان رجالهُ لا يزالون اشداء لم يضنكهم التعب وارتاينا ان يكون الهجوم ليلاً تحت جنح الظلام فاعتذر قائلاً ان الليلة بدرها كامل وخير لهُ ان يوجل الهجوم واراد بذلك ان يتخلص من المعركة ولكن لم نترك لهُ مجالاً للاعتذار اذ قلنا لهُ ان الليلة مع ان بدرها كامل سيصيب القمر خسوف مدة لا يستهان بها وسيغشي الظلام الارض حسب ما هو مدون في مذكرتي . وعندما جاء الليل اصاب القمر خسوف تام فهجم العرب هجمة واحدة كانت كافية لربح المعركة وكان العرب يطلقون البنادق ويضربون بالسيوف وفي الوقت نفسهِ يدقون على التنك لتخليص القمر من الوحش السماوي الذي يبتلعهُ

وكان بين الاسرى في هذه المعركة الاخيرة ضابط تركي اسمهُ نيازي بك فجعلناه في ضيافة ناصر لكي نوفر عليهِ شظف عيشة البدو ولكن مع كل ذلك لم يكن راضياً فتقدم اليَّ وقال لي ان احد الجنود العرب قد شتمهُ بالتركية فاعتذرت لهُ وزدت على العذر قائلاً ولكن الا تظن ان ذاك الجندي قد سمع نفس الشتيمة من احد قوادكم والا لما كان تعلمها فهو يرد بضاعتكم اليكم ثم اخذ من جيبهِ كسرة من الخبز يابسة وقال اهذا ما تطعمونهُ لضابط تركي وقت الترويقة فقلت «ليست هذه لترويقتك فقط بل لغدائك وعشائك ايضاً ولربما لموونتك طول النهار بكاملهِ غداً وها انا من الضباط المقدمين في الجيش البريطاني الذي لديهِ قوت اذا لم نقل اكثر من الجيش التركي فبقدره ومع ذلك فلا اكل اكثر مما تاكل انت فضلاً عن كوني منتصراً وانت اسير»

بقي في وجهنا حصن خضرة وهو الاخير بيننا وبين العقبة فاجتمعنا للبحث واحتكاك الاراء في ماذا يجب ان نفعل وسمعنا اشاعات رائجة بين العرب هناك ان الاتراك قد اخلوا الامكنة كلها ولم يبق منهم فيها اكثر من ثلاثمائة جندي فقر

رأينا على ارسال رسل نطلب بواسطتهم ان يستسلم الاتراك لنا فابوا اولاً واطلقوا النار على الرسل والبيارق البيضاء التي كانوا يحملونها فعزمنا على مقابلتهم بالمثل ولكن احببنا ان نجرب السهم الاخير في جعبتنا فكتبنا الى القائد كتاباً بالتركية نطلب فيهِ اليهِ ان يشفق على رجالهِ ويسلم والحقيقة اننا كنا مثلهم قليلي المؤَن والذخائر • ثم انسللنا خفية الى مكان قرب مخيم العدو وطلبنا مقابلة القائد فقدم الينا وبحثنا في الامر فقرر الاستسلام لنا عند الصباح

ولما اقبل الصباح وتفتقت حجب الظلام تم تسليم الاتراك بدون معركة وكان بين المستسلمين مهندس الماني فتقدم اليَّ وسألني عما يجري ولماذا هم اسرانا فاخبرتهُ عن الثورة العربية واننا نقاتل في جانب الحلفاء وكان الى ذلك الوقت لا يعرف شيئاً عن الثورة العربية في الصحراء وظن اولاً اننا سنقوده مع الاسرى الاخرين الى مكة ولكن اخبرتهُ انهُ سيذهب الى مصر فسألني عن السكر هناك فقلت لهُ ان السكر موجود بكثرة وهو رخيص الثمن ايضاً فسر بذلك وروَّح قلبهُ وطيَّب نفسهُ

وبعد ان استولينا على حصن الخضرة اخذ جيشنا يتدفق الى العقبة دون مقاومة لان العدو جعل كل الحصون والخنادق متجهة نحو البحر اذ كان يظن اننا سنهاجم العقبة بحرًا ولكن عندما جئنا اليها من البر لم يكونوا مستعدين لنزالنا فطرحوا سلاحهم وقنعوا من المعركة بالبقاء احياء

ولا يخفى على القارىء اننا بعد احتلال العقبة تلك الميناء التي كانت تزورها في القديم الاساطيل الفينيقية وسفائن سليمان اصبح جيشنا يعد بالالوف ولكن لم نجد ما كنا نرجو الحصول عليهِ من الزاد فقررت على الذهاب الى مصر لطلب بواخر تاتينا بالزاد واخرى لتحمل الاسرى الى مصر

وبين العقبة والسويس مسافة ١٥٠ ميلًا خالية من الماء والنبات سوى مكان واحد يدعى تهمد فاستصحبت ثمانية من العرب وعلونا متن المطايا وولينا وجوهنا شطر

مصر فاجتزنا المسافة في نهارين وليلتين الى ان وصلنا الى آخر ترعة السويس من الجهة الجنوبية وهناك تقدمت وحدي الى بورت توفيق واذ كنت احن شوقاً الى الاستحمام دخلت فندقاً وقضيت عصارى ذلك النهار في جرن الاستحمام والخدم يواصلونني بالماء البارد للشرب »

وفي اليوم الثاني سافر لورنس بالقطار الى مدينة الاسماعيلية وعندما وصل الى مقصده راى المحطة تعج بالجنود وبين الضباط اميرال وجنرال عام فسأل عنهُ فقيل لهُ هو الجنرال اللنبي قادم لتولي قيادة الحلفاء في الجبهة الشرقيـة وسلفهُ السر ارشيبالد موراي قد دعي الى لندن

فسر لورنس بهذا الخبر لانهُ كان قد سمع عن اللنبي وعن اعمالهِ في الجبهة الغربية. وكان لورنس في تلك الساعة لا يزال في لباسهِ العربي وكانت قدماه حافيتين ووجههُ قد لوحتهُ الشمس . فتقدم الى الاميرال روزلـين ويمس واخبره عما فعل بالاتراك في الصحراء وطلب اليهِ ارسال مؤونة وبواخر لنقل الاسرى. فسر الاميرال بهذه الاخبار واسرع فارسل بارجـة حربيـة الى السويس ثم الى العقبة شاحنـة للمون والذخائر وتسربت اخبار الثورة العربية الى الجنرال اللنبي فدعا اليهِ لورنس واستخبره عن الثورة العربية وشد ما كان سروره عندما اطلع على حقيقة الامر ووعده بالمساعدة اللازمة

ولم يصدق الاميرال ويمس في وعده فقط بل تعداه فانزل ضباطهُ واركان حربهِ الى البر وارسل دارعتهُ الخاصة لتحمل المون الى العقبة كما انهُ اعطاهم عدداً من المدافع الخفيفة الرشاشة . ومنذ ذلك الوقت اخذت القيادة تنظر الى الثورة العربيـة نظرة الاعتبار وترجو منها نفعاً جزيلاً



نسف القطر

وما كادت الجيوش العربية تملأ اسواق العقبة وشوارعها الضيقة حتى راى لورنس ان الثورة لم تعد محصورة في الجزيرة العربيـــة بل تعدتها الى بـــلاد فلسطين وشرقي الاردن واصبح لا يرى فيها ساحة حربية منقطعة عن غيرها من ساحات الحرب الكبرى بل راها جزءا من ساحة حربية واسعة النطاق تمتد من حدود مصر الى الجزيرة العربية ومنها الى العـــراق وفلسطين ولم تعـــد جيوشها الفرسان العربية فقط بـــل الجيوش الانكليزية ايضاً المرابطة في مصر تحت قيادة الجنرال الكبير اللنبي . واطلع لورنس القواد الانكليز على فكرتهِ هذه فرأوا رايهُ وعزموا على امداد الثورة بكل مـــا يمكنهم الاستغناء عنهُ من العتاد الحربية

فتشددت بعد ذلك عزيمة فيصل ونقل مركز قيادتهِ العامة من الوجه الى العقبة واخذت البواخر والمدرعات الانكليزية تمخر عباب ذلك الخليج بعد ان كانت تمخر فيهِ بواخر سليمان الملك في الزمن الماضي . ولما استقر المقـــام بفيصل ولورنس وتوفرت لديهما العدد والمؤن اخذا ينظران الى مهاجمة الاتراك في معان وتجريـــدهم من كل ما كانوا قد احتلوه من الاراضي حوالي الخط الحديدي الحجازي . ولكن خطوة كهذه تقتضي التروي في وضع الخطة والتدقيق في اعداد القوى المهاجمة لئلا اذا تسرعوا في

الهجوم قد يقلب الدهر لهم ظهر المجن فيخسرون في معركة واحدة ما ربحوه في معارك عديدة فضلاً عن ان خطة كهذه يجب ان تتفق مع خطط الجنرال اللنبي التي كان يعدها لمهاجمة فلسطين وشرقي الاردن دفعة واحدة ويجلي عنها الاتراك الى شمالي حلب

ولهذا عزم لورنس وفيصل على التمهل في الامر ولكن ذلك لا يعني ترك العدو لشأنهِ يحصن القلاع والمواقع الحربية ويرسل النجدات الى المدينة وما جاورها من الاماكن والمحطات على طول الخط الحجازي

وكانت الطيارات الانكليزية تدفع عن العرب هجمات الطيارات التركية والالمانية التي كثرت الآن لقلقها على موقف جيوشها كما ان الجيوش العربية كانت تقوم بمناورات صغيرة لكي تحفظ العدو في شغل شاغل ولكي توهمه ان العرب ان يهاجموا معان

ومما لا بد من ذكره ان اللنبي وكليتن اخذا يعدان العدة الآن للهجوم العام جاعلين الجيش العربي الجناح الايمن من الحملة العامة وخصصوا لـهُ مهاجمة الاتراك في منطقة معان ثم شمالاً الى الازرق وجبل الدروز · وكليتن المذكور هو الذي اعتمدتهُ الحكومة الانكليزية بعد الحرب لتسوية الامور الشرقية العربية فانتدبتهُ لعقد اتفاق مع ابن السعود ولكن لم ينجح في ذلك ثم عين مندوباً سامياً لبريطانيا في العراق وتوفي هناك في اواسط شهر ايلول

وبينما كان القواد الكبار يضعون الخطط للهجوم العام سئمت نفوس الجيش المرابط الراحة فقرروا على مهاجمة العدو شرقاً وقطع الخط الحديدي ولو لمدة قصيرة وكانت محطة المدوَّرة اقرب المحطات للعقبة واهمها فجمع لورنس حولهُ فرقة من الجيش واخذ كمية من الديناميت وجهازاً كهربائيا خاصا لاشعال الديناميت من مسافة بعيدة· وكان بين الجنود في العقبة جنديان انكليزيان اظهرا ميلها لمرافقة لورنس في هذه

الحملة فنصحها بالعدول عن فكرتها مظهرًا لها وعورة الطريـق وشظف العيش في الصحراء وقلة الطعام ورداءتهُ اذ ان الحملة تستغرق وقتاً ليس بقصير فضلًا عن ان حرارة الشمس شديدة لا يحتملها حتى العرب انفسهم واذا وقع لورنس بسوء كانت العاقبة عليها وخيمة لسبب جهلها اللغة العربية ولكن كل هـذه الصعوبات لم تثن لها عزماً بل قررا على مرافقة الحملة

زحفت الحملة بمعداتها شرقاً وبعد مسيرة يوم واحد وصلت الى الغويرة وهنـاك القت عصا الترحال لتطلب الراحة والماء وما عتمت ان رأت طيارة من طيارات الاعداء تحلق فوقها ثم اخذت تلقي عليها القذائف فاختبأ الرجال في الصخور الى ان نفدت المون في الطيارة فعـادت من حيث اتت وتابعت الحملة سيرها تحت رحمـة حرارة الشمس المحرقة والانكليزيان يذوقان مرارة العذاب دون ان يجرآا على التذمر لانها جاءا من تلقاء نفسيهما رغم مساعي لورنس في دفعها الى الاقلاع عن عزمها والى القارىء وصف الرحلة كما وصفها لورنس نفسهُ

وبعد سير طويل بين صخور صلبة ومفاوز مرملة وغدران ناشفة وصلنا الى مكان تبينا فيهِ عن بعد غابة من الاشجار فاستأنسنا بهـا وعزمنا على التفيوء تحت ظـلالها ولكن عند اقترابنا اليها سمعنا فيها اصوات الاباعر ممزوجة بقهقهة الضحك وقرقعة الدلاء في الماء فانتحينا ناحية ثم دققنا الطنب وانزلنا الاحمال واعددنا الاهبة للكفاح فيما اذا كان القوم من الاعداء ثم ارسلنا محمداً مستكشفاً فرجع وهو يقول هم من الانصار وليسوا من الاعداء فسري عنا واستعدينا لاضافة القوم عند قدومهم الينا وما هي الا مدة قصيرة حتى عرف القوم بقدومنا وتنسموا اخبارنا وبعد ساعة من الزمن اقبل الينا رؤساؤهم شيخ الدراوشة وشيخ الزلاباني وشيخ الزويدة فقضينا واياهم ساعات سمَر وحديث الى ان اقبل الهزيع الثالث من الليـل فتوسدنا الثرى واستسلمنا لسلطان الكرى

ولما انبثق فجر ١٦ ايلول السنة ١٩١٧ سرنا من وادي السرم شرقاً وكان زعل يقود خمسة وعشرين من النواصرة وهم فخذ من قبيلة عودة وكانوا يدعون انفسهم رجالي حباً بالتباهي والافتخار وكان مطلق الاعور راكباً ناقة هي افضل نياق شمالي الجزيرة تدعى « جدهة » وكنت (اي لورنس) راكباً ناقة اخرى تدعى غزالة هي الناقة الوحيدة التي كانت تقرب من « جدهة » حسناً وثمناً فازددت شرفاً بزيادة غزالة كرماً في المحتد . وكنت اسير بها بين الصفوف كما تتحرك وشيعة (مكوك) الحائك بين لحمة النسيج وسداه فاتكلم الى هذا واشجع ذاك وما هي الا مسيرة يوم او يومين حتى وصلنا الى مكان رأينا منهُ في الافق شيئاً اشبه بالبناء وكانت تلك محطة المدورة التي جئنا لنسفها وقطع الخط الحديدي فيها فسرنا الهوينا الى ان بلغنا هضبة قريبة تفصلها عن المحطة هضبة اخرى فانخنا الجمال في الهضبة الاولى ثم سرحناها لترعى وتفرق القوم جماعات جماعات . وجرى كل ذلك بهدوء وسكون لكي لا يشعر العدو بنا ثم عندما خيم الغسق اخذت زعلاً والانكليزيين وبعض القوم وسرت الى الهضبة الثانية ونظرنا الى سفحها فرأينا خيام العدو تحيط بالمحطة احاطة السوار بالمعصم ورأينا الحراس يروحون ويغدون ونور نيران الحامية يخترق الشبابيك والثقوب في الخيام وكنا نسير ببطء كاي لكي لا تكتشف وجودنا كلاب العدو النابحة . اجل ان المسافة قريبة جداً ولكن المدافع الرشاشة التي كانت معنا لا ترمي قذائفها الى ابعد من ثلاثمائة متر ولهذا كان علينا ان نقرب اكثر فتقدمنا ونحن من شدة الخوف والحذر نكاد نعد نبضات قلوبنا ثم وصلنا الى بقعة قررنا على انها المكان المناسب لوضع المدافع والالتجاء اليها حين الحاجة

ثم تقدمت مع زعل اكثر فاكثر الى ان وصلنا الى مكان تمكنا منهُ من سماع الجنود الاتراك يتكلمون ثم رأينا رجلاً من الحامية آتياً الى جهتنا فمشى مسافة ثم

توقف واشعل سيكارتهُ فرأينا وجههُ على ضوء عود الثقاب وتبيناه فاذا بهِ ضابط نحيف البنية ولما رجع الى جماعتهِ وقفوا لهُ احتراماً واجلالاً

ثم تراجعنا الى مخيمنا بعد ان ظهر لنا ان عدد الحامية كان نحو مئتي رجل بينما نحن لا نزيد عن مئة وستة عشر رجلًا فضلًا عن ان بناء المحطة ظهر قويًا جدًا لا تؤثر فيهِ مدافعنا الضعيفة . فعزمنا على الانسحاب تاركين المحطة آمنة بسكانها واتجهنا الى مكان آخر بين المحطتين حلة عمار والمدورة وقررنا نسف الجسر هناك فاخذت الديناميت والجهاز الخاص المعد لهُ وسرت مع زعل ونفر قليل من الجماعة الى ان اقتربنا من الجسر فنزلت اليهِ بنفسي وحفرت بين الخطين الحديديين حفرة ليست بصغيرة استغرق حفرها مدة ساعتين ووضعت فيها اصبع الديناميت وطمرتهُ في التراب لكي لا يراه حراس الاعداء ثم وصلتهُ بشريط وغطيت الشريط ايضاً بالتراب بطريقة لا يظهر بها انها الارض محفورة واخذت اتراجع على طول الشريط مغطياً اياه بالتراب وكنت حافي القدمين لئلا اترك اثرًا يراه العدو ولما وصلت على بعد خمسين ذراعاً من الجسر انتهى الشريط ولهذا كان علينا ان نضع رجلًا بيده الجهاز ليضغط عليهِ عندما اعطيهِ الاشارة المتفق عليها . ولما رجعت الى رفاقي واخبرتهم بما فعلت نهض شاب اسمهُ سالم وتطوع بان يضغط على الجهاز عندما اعطيهِ الاشارة اللازمة . وقضيت كل بعد ظهر ذلك النهار اعلمهُ كيف يمسك طرف الجهاز بيده

ولكن على غير علم منا كان العدو قد رآنا فارسل الينا مفرزة من حامية محطة المدورة فانسحبنا امامها واختفينا عن الابصار تاركين رجلًا واحدًا ليحرس اللغم الذي تحت الجسر ولحسن الحظ رجعت المفرزة حالاً الى المدورة فرجعنا الى مراكزنا ووقفنا كل في مكانهِ مستعدين للعمل ولكن طال الانتظار حتى يئسنا من قدوم القطر وهممنا للرحيل حتى رأينا دخاناً يتصاعد من جهة «حلة عمار» فاستبشرنا خيرًا وانجلى ذلك الدخان عن قطار كبير قادم الى جهتنا وكان في مقدمهِ قاطرة تجره وقاطرة اخرى

احتياطية في مؤَخره ولما جاء ينساب كالافعى ووصلت دواليب القاطرة الاولى الى مكان اللغم اعطيت الاشارة لسالم فضغط على الجهاز وعقب ذلك صوت انفجار عظيم فتطايرت الدواليب والقطع الحديدية والخشبية الى الفضاء وعلا المكان سحابة من الغبار ولما انجلت ظهر تحتها قطار محطم ثم ما لبثنا ان رأَينا الجنود الذين كانوا فيهِ يخرجون من العربات ويتحصنون وراءها ثم اخذوا يرشقوننا بالرصاص وكان عددهم يفوق عددنا كثيراً فخفنا الهزيمة وسوء العاقبة ولكن لم يطل الوقت كثيراً حتى صوب احد المدفعيين قذيفة الى حيث الجنود ملتجئون فحطم العربة وقتل عدداً كبيراً منهم والاحياء طرحوا سلاحهم مسلمين فنزلنا الى القطار وشاهدنا تأثير اللغم فيهِ وامعن العرب في جمع الغنيمة ثم عدنا ادراجنا الى الصحراء دون ان تشعر بنا الحامية التي كانت مرابطة في المدورة

وبعد مسير يومين وصلنا الى العقبة راجعين بالغنائم واكليل الغار معلنين ان الاتراك وقطرهم اصبحوا تحت رحمة العرب . والانكليزيان اللذان رافقانا سافرا حالاً الى مصر حيث قلقت الافكار لعدم رجوعها وقلد اللنبي كلًّا منهما وساماً اقراراً بما قاما بهِ من الصبر على المشاق في الصحراء

٨

رحلة غير ناجحة

وما جاء شهر تشرين الاول من السنة ١٩١٧ حتى قرر اللنبي واركان حربهِ على مهاجمة الاتراك في جبهة تمتد من غزة على البحر المتوسط الى بئر السبع في داخلية البلاد وكان اللنبي يترجح بين خطتين الاولى مهاجمة الاتراك وجهاً لوجه وانتزاع البلاد منهم ميلًا ميلًا والثانية استخدام خدعة حربية يتمكن بها من الاستيلاء على فلسطين وسوريا دفعة واحدة. وعلى ما في الخطة الثانية من الحسنات فانها شديدة الاخطار ايضاً اذ ان الفشل فيها يوقع في الجيش المهاجم خسائر جسيمة تفوق الخسائر التي تتأتى عن الفشل في الخطة الاولى ولكن اللنبي لثقتهِ بنفسهِ واعتماده على جيشهِ قرر على اتخاذ الخطة الثانية وبدأ يعمل على ايقاع العدو في خدعة حربية يضطره معها الى الجلاء عن فلسطين وسوريا معاً ولكنهُ رأى ايضاً انهُ لا يمكنهُ تحقيق خطتهِ ما لم يهاجم الاتراك في جنوبي فلسطين ويطردهم من القدس وجوارها وهذا ما عزم على القيام بهِ في شهر تشرين الاول الذي اشرنا اليهِ في صدر المقال

كان لاللنبي ما اراد من توطيد قدمهِ في جنوبي فلسطين وبعد ذلك اخذ يعد العدة للقيام بهجوم عام وقدح زناد الفكرة في استنباط الحيلة فظهر لهُ ان افضل خدعة

هي ايهام العدو انهُ سيهاجمهُ في مكان معين ثم يحول قوتهُ الى مكان آخر قد تركهُ العدو دون تحصين او حامية كافية وهنا لا بد لنا من ذكر شيء عن جغرافية ذلك القسم من فلسطين لنفهم كيف كان سير المعارك التي انتهت باندحار الاتراك وفوز الحلفاء فوزاً مبيناً

الى شرقي غزة وبئر السبع بحر يقال لهُ البحر الميت والى شمالي ذلك وادٍ يجري فيهِ نهر الاردن المشهور فيقسم تلك البلاد الى قسمين القسم الغربي وهو فلسطين اليوم والقسم الشرقي وهو شرقي الاردن وعلى جانبي وادي الاردن تمتد سلسلتا جبال موازيتان للنهر و حسب الاصول الحربية ظن الاتراك ان جيش اللنبي المهاجم سيتخذ الوادي ممراً لهُ وليس الجبال العالية فوقفوا لهُ بالمرصاد هناك وعززوا قوتهم ولكي يزيدهم اللنبي تمسكاً باعتقادهم هذا جلب من مصر كل الخيام القديمة الممزقة ونصبها هناك في وادي الاردن ثم جاء باحرامات للخيل قديمة ووضعها في صفوف مرتبة على الصخور هناك فظهرت كانها خيول جيش من الفرسان كبير وكانت الطيارات الالمانية تطير فوقها مستكشفة ثم تعود الى مقرها حاملة الانباء ان الجيش الانكليزي كلهُ مرابط في وادي الاردن وسرت اشاعة مصدرها اللنبي ان الجيش الانكليزي سيقوم بمعارك دامية في ذلك الوادي التاريخي الشهير فما كان كل ذلك الا ليزيد الاتراك تمسكاً في اعتقادهم فحولوا كل قوتهم نحو وادي الاردن وتربصوا ينتظرون العدو ليكيلوا لهُ الكيل كيلين والصاع صاعين وهنا نترك اللنبي لنعود الى لورنس وجيشهِ العربي الذي عليهِ وضعنا محور بحثنا في هذه المقالات

تركنا لورنس في العقبة يسترجع القوى ويضع الخطط للمستقبل وعندما علم بعزم اللنبي الى القيام بهجوم عام قرر الاشتراك معهُ لعلهُ يجذب نحوه قوة من العدو فيسهل النصر للحلفاء في الساحة الشرقية

ولولا الخوف من ان يمل القارىء لكنــا نسرد له باسهاب الاخطــار التي كان يتجشمها لورنس في اسفاره. ولكننا نروي له وقائعــهُ مع العرب انفسهم وجهوده في حفظهم جيشاً واحداً رغم ما كان فيهِ من القبائل والعشائر المختلفة الميول والنزعات

راى لورنس بعد اعمال الفكرة ان افضل خطــة يقوم بهــا الزحف سراً بجيشهِ السريع القليل الى ابواب درعا واخذها فجأة وبذلك يقطع خط المواصلات بين مقر الجيش التركي الاساسي في دمشق وبين الجيش المرابط في فلسطين لمقاومــة اللنبي اذ ان درعا واقعة على الخطوط الحديدية التي تصل بين القدس وحيفا ودمشق والمدينة المنورة واحتلالها عسكريا يجعل الجيش التركي في فلسطين في خطر شديــد . وقرر فيصل على انهُ يحتاج للقيام بهذه الخطة الى جيش لا يقل عن ١٢٠٠٠ محارب فيحتل بهِ درعا ويفاجىء دمشق ويقطع خط الرجعــة على الاتراك بعــد ان يرسل الحلفاء اسطولهم الى بيروت وجوارها لسد الطريق الساحلية في وجوههم

كان لورنس يتلقى من السكان حول درعا رسائل عديدة يطلبون فيها ان يتقدم اليهم وانهم يتطوعون في جيشهِ لمحاربــة الاتراك ولكن قبل قبول تلك الدعوات كان عليهِ ان يتريث في الامر لئلا يفشل فيخسر كل ما ربحهُ الى الآن فضلاً عن ان الدخول الى درعا على جيش من السكان المجاورين ثم التراجع عنها يعرض اولئك السكان الى مجزرة فظيعة ويتركهم تحت رحمة الاتراك . ولهذا بالاشتراك مع فيصل قرر على الانتظــار ريثما يقوم اللنبي بالخطوات الاولى في الهجوم فــاذا نجح سارا في خطتهما

ولكن في الوقت نفسهِ الذي قررا فيهِ الانتظار رايا ان يعرقلا سير الاتراك ولو قليلاً فيمنعانهم عن ارسال النجدات الى جيشهم في فلسطين لعلهما يسهلان بذلك على اللنبي الخطوات الاولى في الهجوم . وافضل مكان لعرقــلة سير الاتراك نسف الخط

الحديدي حيث يمر فوق عدة جسور على نهر اليرموك . واختار لورنس اثنين من هذه الجسور التي يصعب على الاتراك اعادة بنائها فخابر اللنبي بهذه الخطة الصغيرة وطلب اليهِ رايهُ فاجابهُ انها فكرة حسنة ويجب القيام بها في احد الايام الواقعة بين الخامس من تشرين الثاني والتاسع منهُ اذ يكون اللنبي قد بدأ في مهاجمة العدو الذي يشعر اذ ذاك انهُ منفصل عن مركزه العام في دمشق ويقطع الامل بالنجدات فتضعف قواه المعنوية كثيراً مدة اسبوعين على الاقل

وكان على لورنس لكي يتم خطتهُ هذه ويصل الى اليرموك ان يسافر مع جماعتهِ من العقبة ماراً بالازرق مسافة ٤٢٠ ميلاً . واذ ظن الاتراك ان لورنس وجيشهُ بعيدون عن الخط الحديدي تركوه دون ان يحموه بقوة كافية فكان ذلك ملائماً للجيش العربي كل الملائمة

وكان في الجماعة التي اختارها لورنس شاب شجاع يدعى علي ابن الحسين شريف حارث وقد ابدى شجاعة فائقة في معاركهِ الاولى مع فيصل قرب المدينة واذ كان علي ضيف جمال باشا مدة في دمشق كان يعرف الكثير عن الاحوال في سوريا واذا اضفنا كل هذا الى شجاعتهِ في المخاطر كان للورنس فيهِ اكبر معوان على الاعداء في رحلتهِ هذه

واستصحب لورنس معهُ المهندس الانكليزي في العقبة والذي كان يعتمد عليهِ في دسّ الالغام واشعالها وكانت خطة لورنس ان يسير بجماعة قليلة الى الازرق ثم من هناك يسير بجماعة تبلغ الخمسين عداً الى ام قيس تحت قيادة رفاع الشجاع وهناك يبذل جهده في استمالة نفر من بني ابي طي رجال زعل لمرافقتهِ ايضاً وهؤلاء يعين لهم الهجوم على الجسر وقتل حراسهِ بعد نسفهِ واذا كانت المحطات المجاورة لترسل الى

الحراس نجدة كان على بني طي ان يصلوهم نارًا حامية من مدافعهم الرشاشة التي يطلقها الكابتن الانكليزي « برايز » من الفرقة الهندية التي كانت في الساحة الغربية واصبحت الآن تحت قيادة جمدار حسن شاه

وبينما لورنس وجماعتهُ على وشك السفر قدم اليهم بغتة الامير عبد القادر الجزائري وهو حفيد الجزائري الذي حارب الفرنسيس في الجزائر مدة ليست بقصيرة . وبعد ان استقر بهِ المقام عرض على فيصل رجالهُ سكان القرى المجاورة لنهر اليرموك فسر لورنس لهذا القادم الجديد وقرر على العدول عن مهاجمة الجسور عن طريق الازرق وحول افكاره الى مهاجمتها في وادي خالد وعدل ايضاً عن دعوة رفاع ليلاقيهُ الى الازرق . واذ هم في هذه الحال ورد اليهم نبأ برقي من الكولونل برمون يقول لهم فيهِ ان عبد القادر هذا جاسوس في يد الاتراك فيجب الحذر منهُ فقرر لورنس على استخدامهِ ولكن بحذر فضمهُ الى جماعتهِ وساروا في طريقهم شمالاً ثم شرقاً . ولكي لا نطيل الكلام على القارىء نعرض عن وصف ما جرى لهم في الطريق وننتقل بالكلام الى وصف هجومهم على الجسور فوق نهر اليرموك

وقبل ان تصل الجماعة الى الازرق ركب عبد القادر الجزائري ورجالهُ على خيولهم الجميلة واستعدوا للمعركة مدعين ان العدو اصبح قريباً وساروا في مؤخرة الجماعة على بعد بعض الامتار ولما وقعت عينا علي على الازرق صاح من شدة الفرح واستحث مطيتهُ ثم نظر الى الارض ورأى الاعشاب الخضراء تغطيها فنزل عن ظهر ناقتهِ واخذ يرقص طرباً لرؤية تلك الاعشاب النضرة ولما رجع الى العمل التفت الى الوراء فلم يرَ عبد القادر ورجالهُ فارسل الرسل لارشاده اذا كان ضل عن الطريق فرجع الرسل دون ان يقفوا لهُ على اثر فعلموا اذ ذاك ان خطتهُ هذه كانت مدبرة وانهُ تركهم وذهب الى الاتراك لينقل اليهم اخبار لورنس ويطلعهم على عدد رجالهِ فلم تسرّ الجماعة

بهذا الحادث ولكن قد كان ما كان فاضطروا الى تغيير الخطة وعدلوا عن مهاجمة ام قيس اذ لم يرسلوا الى رفاع خبراً ليلاقيهم الى ذلك المكان وعدلوا ايضاً عن وادي خالد اذ لم يعد بالامكان الاتكال على رجال عبد القادر فلم يبق امامهم الا الجسر الواقع في تل الشهاب ولكي يصلوا اليهِ كان عليهم ان يجتازوا المسافة بين درعا والرمث

تابعت الجماعة سيرها الى ان وصلت الى قرب تل الشهاب ووقفت قليلاً فاختار لورنس من الهنود المرافقين للحملة ستة من اشجع الفرسان ووضعهم على ستة من اقوى المطايا وجعلهم تحت قيادة حسن شاه الذي اختار مدفعاً واحداً وهذا نقص في العدد الحربية جعل لورنس يتشاءم من هذه الحملة · وكان في الحملة جماعة من بني صخر ايضاً المشهورين في الحرب فوضعهم لورنس تحت قيادة فوًاد وعين لهم الهجوم بعد نسف الجسر واما جماعة بني سرحان فكان لورنس على شك في اخلاصهم نحو القضية العربية ولهذا عين لهم حراسة الاباعر عندما تتقدم الجماعة الى الامام للحرب والنسف

ولما بلغت الجماعة القليلة مكاناً يقرب من الجسر الذي كانت تنوي نسفهُ وقف قسم منها ومعهم المدفع وتقدم قسم آخر لوضع المتفجرات تحت الخطوط الحديدية وكان هذا العمل منوطاً بلورنس الذي نزع نعلهُ من رجليهِ واخذ في الزحف تارة والمشي طوراً حتى وصل الى الخط الحديدي قرب الجسر تماماً وباشر في وضع المتفجرات تحت القطع التي تربط الخط الواحد بالآخر ونظر الى الامام فرأى الحارس على بعد ٦٠ متراً واقفاً بجانب صخر عالٍ وما هي الا لحظة حتى سمع لورنس وجماعتهُ صوت وقع بندقية الى الارض وكان سبب ذلك فرقة الهنود التي كانت تتخذ مراكزها للدفاع · فلما سمع الحارس الصوت نظر الى فوق فرأى على التل جماعة من

الجنود فصرخ عالياً حتى ايقظ الحامية وبدأ اطلاق الرصاص من الفريقين وكان الحمالون يعرفون انهُ اذا أُصيبت المتفجرات برصاصة انفجرت بين ايديهم فقتلتهم ولهذا عندما حميت نيران المعركة طرحوا المتفجرات الى الوادي فذهبت سدىً وتراجعوا يندبون سوء حظهم وفشلهم . وفي تراجعهم رأوا في الطريق جماعة من الفلاحين عائدة من درعا فسلبها السراحين ما كان معها فاستنجدت الجماعة بالقرى المجاورة حتى كان وراء جماعة لورنس جيش لا يدرك الطرف آخره وهربوا قانعين من الغنيمة بالاياب . وهكذا ساروا كل الليل حتى وصلوا في الصباح الى مكان امين فاناخوا فيهِ ودقوا الطنب للراحة ولكن كان الغضب يملأ رؤُوسهم بسبب ما اصابهم من الفشل وكانت اصوات مدافع اللنبي اكبر مبكت لهم . ثم ساروا كل ذلك النهار الى ان وصلوا الى ابي صوانة قرب غروب الشمس وكلهم يائس . فتشاجر احمد وفؤَاد وابى مصطفى الطاهي ان يطبخ لهم طعاماً فانهال عليهِ فرج وداود بالضرب الى ان اجهش بالبكاء وناموا كلهم والفشل مخيم فوق رؤُوسهم اضف الى ذلك ما لحقهم من التعب بعد سفر مئات الاميال في مدة قصيرة من الوقت بين غروب الشمس والغروب التالي دون ان يذوقوا طعاماً او كرى



٩

نسف القطار

لا يخفى على القارىء اننا عندما تركنا الأزرق للقيام باعمال النسف والتدمير حملنا معنا زاداً يكفينا ثلاثة ايام فقط وها نحن الآن قد نفذ زادنا ولم ننجح في المهمة التي سافرنا لاجلها فاصبحنا تحت تاثير عاملين شديدين الجوع والفشل

وبينما نحن في حيرة وارتباك اذا باحدنا يقول «قد بقي معنا قليل من المتفجرات فلماذا نرجع بها ؟ لنجرب ثانية علنا ننجح في نسف قطار ما». فهلل الباقون لكلامه وصفقوا وقالوا له «الحق ما قلت» وقام بنو صخر يطلبون مخاطر ليتجشموها والسراحين يتوعدون الاتراك ويظهرون رغبتهم في الفتك بهم

واما انا (لورنس) فاعرف ان نسف القطر لا يقوم بالكلام والوعيد والتهديد بل يحتاج الى معارف فنية في الخطط الحربية واستعمال الجهاز الذي يولع المتفجر فترددت بادىء ذي بدء لانني بعد درس المسألة رأيت ان المدفعيين الهنود الذين معي قوم اشداء اذا كانت بطونهم ملآنة واما تحت وطأة الجوع فهم لا يعادلون الاولاد باساً في المعارك ولو كانوا كالعرب يقضون الايام العديدة على طعام قليل جداً لكانت

الاخطار اقل مما هي فضلاً عن ان العربي اذا ضاقت بهِ الحيل عمد الى جمله فقتلهُ واكل لحمهُ واما الهندي فلا ياكل لحم الجمال مطلقاً

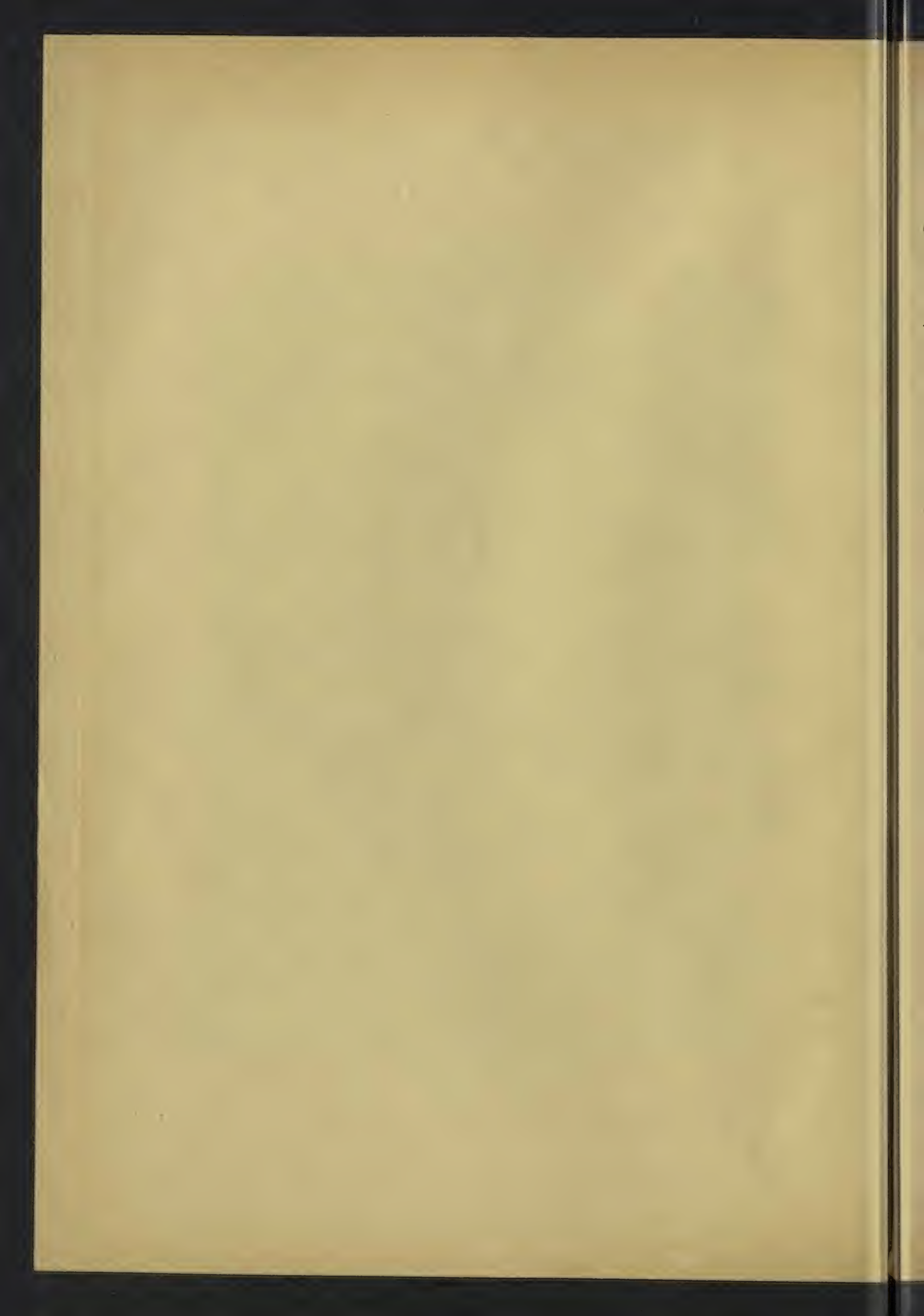
اوضحت لعليّ كل هذه الامور وابنت لهُ مواقع الخطر ولكنهُ اصر قائلاً « انسف لنا القطار وانا ورجالي نتكفل بالهجوم بدون مساعدة المدافع » وبعد اللتيا والتي قر قرارنا على ان نكمن لاحد القطر فننسفهُ واذا رأينا فيهِ من الزاد ما يلائمنا كان ذلك غاية ما نروم ونطاب واذا لم نجد فيهِ المطلوب عرقلنا سير الاتراك وساعدنا اللنبي ولو قليلاً وليس من حصاة صغيرة الا وتسند خابية كبيرة

ولما تولت حجب الظلام وانبثق نور الفجر قمنا جميعنا وكنا نبلغ الستين عداً فسرنا الى تل منيفير الذي كنا نقدر ان نرى منهُ الخط الحديدي ونجد فيهِ مرعى للاباعر ومنافذ عديدة للهرب فقضينا هناك كل ذلك النهار نسرح الطرف في ذلك السهل الواسع وننظر الى الافق البعيد فنرى قمم جبل الدروز مكسوة بالغيوم وقرية ام الجمال وغيرها من القرى كانها في خضرة ذلك السهل كبقع الحبر في صحيفة من القرطاس ولما « خيم الغسق وتصرم الشفق » خف عدد قليل منا للهبوط الى الخط الحديدي ووضع اللغم تحتهُ واذ وصلنا الى الجسر وبدانا العمل سمعنا فوقنا دمدمة واذا بهِ صوت قطار مار فتركناه لشأنهِ وعدنا الى العمل الى ان تم الامر على غاية ما نروم ثم اخذنا نتراجع الى الوراء طامرين شريط اللغم في التراب وخوفاً من ان نترك علامات اقدام على الارض نزعنا نعالنا من ارجلنا ومشينا حفاة الى ان بلغنا الى مكمن امين فبقيت فيهِ وحدي وارسلت الآخرين الى التل ليراقبوا سير القطر ويوافوني بالاشارات ووصلنا الجهاز الكهربائي بشريط اللغم وكان طول الشريط نحواً من ستين متراً وبعد ان اتممت كل ذلك جلست في مكاني انتظر قدوم القطار وما هي الا مدة قصيرة حتى رايت احد حراسي يعطي اشارة تدل على ان احد حراس الاتراك يقترب مني في دورتهِ التفتيشية فهربت خفية الى حيث رفاقي جالسون وحملت معي الجهاز

الكهربائي واعطيتهُ لاحد رجالي ولما اتم الحارس دورتهُ ورجع الى مكانهِ الاول رجعت انا ايضاً الى مكاني بدون الجهاز على امل ان يأتيني بهِ من كان يحملهُ وما كدت اجلس في مركزي حتى مر قطار سريع جداً قبل ان يتمكن حامل الجهاز من الوصول اليَّ فكانت تلك فرصة مضيعة وبدأنا نتشاءم من هذه السفرة غير المثمرة

ولكي احول انظار رجالي عن الفشل اقترحت عليهم اقامة حراس في اكثر من مكان واحد وكان هذا الاقتراح مشجعاً لهم مع انهم كانوا بلا زاد وكان المطر يتساقط بشدة ويعضنا البرد بنابهِ . وكان اذا توقف المطر هبت ريح باردة تخترق الثياب وتدخل الى الجسم كانها سيف ماضٍ فجلسنا على ذلك التل ونحن في هذه الحالة المملة لا طعام ولا عمل ولا مكان ناشف نجلس عليهِ وقلت في نفسي ان طقساً كهذا يؤَخر سير اللنبي نحو القدس فنضطر بذلك الى قضاء سنة اخرى في حالة لا يمكن ان يتحملها بشري

وقرب الظهر صحا الطقس قليلًا وتقشعت السحب التي كانت تواصلنا بالمطر الرذاذ تارة وطوراً بالمتهاطل منهُ واذا بحراسي يشيرون الى قدوم قطار فتراكض القوم كل الى مكانهِ وجلست انا في مكاني المعين والجهاز بيدي وتطلعت الى الوراء فوجدت ان الجماعة مختفية جيداً وراء الصخور وبقيت جالساً في مكاني نحو ساعة من الزمن حسبتها دهراً فسالت رجالي عن القطار فقالوا لي انهُ يتقدم انتظر فانتظرت مدة اخرى ثم سمعت صوتهُ يتقدم رويداً رويداً وكان لطولهِ واضعف قاطرتهِ التي كانت تسير على الحطب يتقدم خطوة خطوة ورايت فيهِ عربات مكشوفة ملوءة جنوداً ولما وصلت القاطرة الى مكان اللغم ضغطت على الجهاز وانتظرت الانفجار فلم يحدث شيء فاعدت العمل نفسهُ ثلاث مرات ثم رابعة ولكن دون جدوى فعلمت ان هنالك تشويشاً في الجهاز فسار القطار امناً ونجا بمن فيهِ . وفي تلك الساعة رايت نفسي



ذ.ف محلة المدوّرة

السبب في الفشل . امامي قطار ملآن بالجنود يسير على بعد ستين مترًا وانا لا اقدر ان اتي عملًا . وكيف اقابل رفاقي الذين ينتظرونني على راس التل وبنادقهم في ايديهم يرجون نسف القطار لسلبه ونهبهِ والاقتيات بما فيهِ من الطعام . ولما اجتاز القطار الجسر رجعت الى راس التل كالارنب الجبان اطلب ملجأً مع رفاقي الذين بعد ان عرفوا السبب انقسموا الى قسمين منهم من لامني وهمَّ لقتلي وهم السراحين ومنهم من دافع عني وهم بنو صخر واذ سمع عليٌّ الجلبة والصياح تقدم واصلح بين الفريقين مفتياً في الامر بالتي هي احسن فنجاني من ورطة يعسر الخلاص منها

واخذت الجهاز ونزعت عنهُ غلافهُ ثم اخذت في اصلاحهِ حتى اصبح يعطي نارًا كهربائية عندما تتلامس آلاتهُ الداخلية فوعدت الجماعة خيرًا واذ كان الليل قد جاء واشتد سقوط المطر انتحينا ناحية وقضينا الليل بين الانين والتذمر الى ان انجلى الظلام ولاح نور الصباح فعمدنا الى بعيرٍ قد اصابهُ الجرب فذبحناه وجلسنا ناكل لحمهُ نيئاً اذ لم يكن لدينا حطب ناشف نحرقهُ وما كدنا نستقر في اماكننا للطعام حتى صرخ الحارس ها القطار قادم فاسرعنا الى مراكزنا وبيدي الجهاز وما هي الا هنيهة حتى قدم القطار وفيهِ قاطرتان الواحدة في مقدمهِ والاخرى في موخره ولما وصلت القاطرة الاولى الى مكان اللغم ضغطت على الجهاز فتصاعد التراب والصخور في الجو وخيمت فوق القطار سحابة من الدخان ودوت الاودية لشدة صوت الانفجار ولما انجلى الدخان راينا قطارًا مكسرًا ولكن لم يمض الا الوقت القصير حتى راينا العدو يستفيق من غيبوبتهِ ويصلينا نارًا حامية فقابلناه بالمثل ووجدت نفسي بين نارين نار العدو من امامي ونار الاصحاب من ورائي فسقطت الى الارض لكي لا يصيبني الرصاص فظن رفاقي انني قتلت فركضوا اليَّ ووجدوني سالمًا لم اصب باذى واذ راينا العدو يفوقنا عَددًا وعُددًا انسحبنا من وجهه بانتظام الى ان وصلنا الى مكان امين فجلسنا وذبحنا جملًا آخر اصيب بالجرب ثم وزعتُ الدراهم على اهل الذين قتلوا في المعركة ومنحت

الذين ابدوا شجاعة جوائز متنوعة ثم في اليوم التالي رجعنا الى الازرق رجوع المنتصر

ولما وصلنا الى قصرنا القديم هناك راينا ان امير صلخد الدرزي كان قد سبقنا اليه فاخبرنا ما عملهُ الامير عبد القادر الجزائري بعد ان تركنا في الطريق كما يعلم القارئ واليك قصة ما فعل

ذهب الى القرى الدرزية رافعاً العلم العربي وكان رفقاؤه يهزجون ويطلقون النار فتعجب القوم من هذا العمل حتى ان القائد التركي اعترض على سلوك عبد القادر هذا السلوك واذ حضر ذلك القائد ليبدي اشمئزازه من عمل كهذا راى عبد القادر جالساً بكل عُجب على ديوانهِ وحولهُ رجالهُ وبدأ بخطاب فصيح جاءَ فيهِ ان الشريف العربي قد استولى على جبل الدروز بواسطتهِ وانهُ بالنيابة عن الامير فيصل يثبت كل مأمور في وظيفتهِ فاستاء الدروز لهذه السياسة الخرقاء وحقهم ان يستاؤوا ولكن الامير عبد القادر انهال عليهم بالسب والشتائم ثم خرج من الخيمة مسرعاً الى درعا حيث فعل كما فعل في صلخد ولكن الاتراك لم يصدقوه كما انهم لم يصدقوا ما اخبرهم بهِ اننا سننسف القطر على جسر اليرموك ولكن عندما سمعوا اننا حقيقة نسفنا القطار هناك اهتموا باخبار الامير عبد القادر فالقوا عليهِ القبض واستاقوه الى الشام ليكون برفقة جمال باشا وتحت مراقبتهِ

١٠

قوة جديدة

تركنا في المقال الماضي لورنس وجماعتهُ في الازرق يستمعون الى قصة الامير عبد القادر الجزائري كما رواها شيخ صلخد . وبعد ذلك عزم لورنس على الرجوع ثانية الى العقبة للوقوف على الخطط التي وضعها اللنبي فاستصحب جماعة من رفاقهِ وسار جنوباً الى المقر الاساسي للجيش العربي في العقبة وقد قاسى في سفرتهِ هذه مخاطر ليست بقليلة ولكن ضيق المقام يضطرنا الى اهمال ذكرها . ولهذا نبدأ القول بان الذي ينظر الى خارطة سورية وداخليتها وخارطة فلسطين والصحراء يرى ان الازرق واقعة الى الجنوب من جبل الدروز والعقبة واقعة في الجنوب قرب شبه جزيرة سيناء على الخليج المعروف بذلك الاسم وما كانت حملة لورنس شمالاً لنسف الجسر سوى انسلال خفي بين جيوش العدو ولذلك كان عليهِ في رجوعهِ ان يمر في اماكن مجاورة للعدو معرضاً نفسهُ بذلك لاخطار جمة ولكن صاحب الحيلة ناجٍ. فتمكن لورنس من الوصول الى العقبة حيث اخبروه ان اللنبي يطلبهُ اليهِ في مقره في جوار غزة فاسرع لورنس ملبياً الطلب على متن طيارة اقلتهُ من العقبة الى السويس ومنها الى غزة

فوجد اللنبي يتلقى اخبار انتصاره في انحاء فلسطين حتى ان لورنس اكتفى بان قال لهُ انهُ فشل في نسف جسر اليرموك وقد وصفنا للقارىء ذلك الفشل في مقالات سابقة

غير ان اللنبي كان ثملاً بخمر انتصاراتهِ فلم يعر فشل لورنس اقل اهتمام وبينما كان الاثنان يتجاذبان اطراف الحديث وردت الى اللنبي رسالة من احد قواده «شتود» يخبره فيها ان القدس قد سقطت امام الجيش الانكليزي فتهيأ اللنبي لدخول المدينة دخول المنتصر واحب ان يشاركهُ لورنس في حفلة الدخول فاستصحبهُ معهُ ودخلا معاً على راس كتيبة من الجيش ولكن لم يتمالكا من اظهار التواضع والاحترام امام ذلك المكان المقدس الرهيب ثم جلسا يبحثان فيما يجب عملهُ بعد ذلك

وكانت خطة اللنبي في ذلك الوقت ان يريح جيشهُ الى ان ينقضي النصف الاول من شباط ثم يعود الى الهجوم فيتقدم الى اريحا واشار الى لورنس بان العدو يستخدم وادي البحر الميت لنقل المون والذخائر فاذا تمكن هذا الاخير من عرقلة سير العدو في تلك الناحية كان ذلك اكبر مساعد لاللنبي . فاجاب لورنس انهُ اذا بقي الاتراك مترعزعين في مراكزهم فالجيش العربي يقدر ان يتصل بجيش اللنبي في الطرف الشمالي من البحر الميت واذا كان اللنبي يكفل لجيش فيصل نقل خمسين طناً من المون يومياً فانهُ يتمكن اذ ذاك من نقل القيادة العربية العامة من العقبة الى اريحا

فراقت هذه الخطة اللنبي واركان حربهِ واتفق القواد جميعهم على ان الجيش العربي سيسير شمالاً نحو البحر الميت باسرع ما يمكن فيصلهُ قبل نصف شباط ويقطع ارسال المون الى اريحا ثم يواصل سيره شمالاً فيصل الى وادي الاردن قبل آخر شهر اذار

وعاد لورنس الى العقبة حاملاً التعليمات والخطط الجديدة ولما بلغها وجد ان الجيش العربي اخذ بعد دعوة اللنبي ينظر اليهِ نظر الاحترام كما ان لورنس نفسهُ بدأ في اعداد حرس شخصي يحميهِ من يد مغتالة

عندما تحركت ركاب الجيش اولاً من رابغ الى الينبع لم يهتم بهِ الاتراك كثيراً ظنا منهم انهُ موجة صغيرة في بحر الحرب الكبرى وسوف تضمحل مع استعمال قليل من القوة في وجهها واما الآن فقد اخذ منهم القلق كل مأخذ حتى انهم كانوا ينسبون ادارة الثورة العربية للانكليز كما كان الانكليز ينسبون ما يقوم بهِ الاتراك من الخطط الحربية الناجحة للالمان الذين كانوا في ذلك الوقت قد انتشروا في انحاء تركيا كلها ولهذا اخذ الاتراك يعدون بدفع مئة ليرة عثمانية لكل من ياتيهم بضابط انكليزي ميتاً او حياً ثم وضعوا على راس لورنس بعد سقوط العقبة ثمناً باهظاً جدًّا وبعد نسف قطار جمال باشا ظهر اسم الشريف علي مع اسم لورنس على راس قائمتهم ايضاً ووضعوا على راس الواحد منها عشرين الف ليرة لكل من يمسكهُ حيا وعشرة آلاف ليرة لمن ياتي بهِ ميتاً . ومع ان نوع الثمن لم يعرف اذهباً كان ام ورقاً ومع انهُ لا يمكن التاكيد ان الاتراك يقومون بالوعد فالحالة كانت تقضي بالانتباه والحذر فاكثر لورنس من الحرس الشخصي ليكون في حرز امين يقيهِ شر عدو منتقم وجمع حولهُ كل متشرد ثائر على الحكومة التركية وتسنى لهُ ان يلتقي عددًا كافياً من هذا النوع

وحسب الخطة التي اتفق عليها لورنس واللنبي اخذ الجيش العربي بالزحف من العقبة شمالاً على طريق غربية موازية للخط الحديدي فاحتل الطفيلة اولاً وبعد ذلك داهمهُ الشتاء فوقف عن الحركة وهنا وقعت حوادث كان يجب علينا وصفها لولا ضيق المقام

وبينما لورنس ورفاقه يقاسون مرارة العيش في مكان بارد قضت الاحوال على لورنس ان يتوجه الى فلسطين المبحث مع اللنبي في امر قضية حربية ولما مثل لديهِ اطلعهُ القائد العام على نبأ جاء فيهِ ان الوزارة الحربية اصبحت تعتمد عليهِ (اللنبي) كثيراً الان لان حرب الخنادق في الساحة الغربية قد جعلت المعارك خطرة جدًّا حتى اصبح الجندي لا يقوى على رفع راسهِ فوق حافة خندقهِ وهذه الحالة منعت جيوش

الجانبين من التقدم شبرًا واحدًا ولهذا لم يعد للحلفاء من امــل سوى الانتصار على تركيا في الساحة الشرقية واجبارها على التسليم ثم نقل قواتهم الى الساحات الاخرى واشارت وزارة الحربية على اللنبي بالسعي للاستيلاء على دمشق على الاقــل وحلب اذا كان ممكناً . وهذه البرقية من الوزارة الحربية البريطانية كانت السبب في دعوة اللنبي للورنس والبحث معــهُ فيما اذا كان الجيش العربي الذي يولف الآن الجناح الايمن من جيش اللنبي يقدر ان يتخذ على نفسهِ مسؤوليــة الزحف ضد الاتراك في شرقي الاردن فيحول اللنبي قواتهِ الى فلسطين ويدحر الاتراك فيها

فاجاب لورنس انهُ قبل اتخاذ هذه الخطة العامــة يجب النظر في امور لا بد من درسها وهي :—

اولاً — معان — فاذا كان اللنبي يقدر على امــداد الجيش العربي بفرقة من الجمالة لنقل المون لكي يصبح قادرًا على الابتعاد عن مقره مسافة ثمانين ميلًا على الاقل فانهُ يقدر بذلك ان يعسكر شمالي معان ثم يقطع الخط الحديــدي فتضطر الحامية هناك الى التسليم على اهون سبيل خصوصاً ان الجيش التركي لا يقدر على الوقوف في وجه الجيش العربي اذا التحم الجيشان في معركة لمعت فيها السيوف وشرعت الخناجره ثانياً ان الجيش العربي يحتاج ايضاً الى بعض مدافع رشاشة وسبعماية بعير لحمل المون والذخائر وثالثاً حماية الجيش العربي من جهة عمان بينما هو مشغول في حصار معان

فقبل اللنبي بهذه الشروط واسرع فامر بارسال فرقتين من الجمالة تحت ادارة ضباط انكليز الى الجيش العربي وكانت تلك هبة عظيمة يتمكن لورنس بهــا من ارسال اربعة آلاف مقاتل مسافة ثمانين ميلًا عن المقر الاساسي كما ان اللنبي وعــد بارسال المدافع اللازمة وحماية الجيش العربي من جهة عمان اذ انهُ كان عليهِ لحماية جناحهِ ان يحتل السلط ويحتفظ بها بتركهِ فيها كتيبة من الهنود

وفي الغد التأم المجلس الحربي وكان لورنس حاضرًا التئامهُ فصادق على كل مــا

جرى فيهِ البحث في النهار السابق ثم سار لورنس جنوباً الى العقبة ليطلع فيصل على الخطة الجديدة مبيناً لهُ ما جاد بهِ اللنبي على الجيش العربي فسر فيصل كل السرور خصوصاً عندما اخبره عن انضمام فرقتي الجمالة الى الجيش العربي وانهُ اي اللنبي وضع تحت تصرف لورنس ثلاثمائة الف ليرة انكليزية كنفقات ضرورية للجيش . وبفضل وسائط النقل الجديدة انفتح امام الجيش العربي مجال ليظهر نفسهُ انهُ كفوء للحرب النظامية بعد ان قضى الضباط الانكليز والعرب مدة ليست بقصيرة في تدريبهِ

وبعد مقابلتهِ لفيصل اسرع لورنس الى مصر لتحقيق ما وعده بهِ اللنبي فكان لهُ ما شاء من ضباط وعتاد حربية

نشأت الثورة العربية كطفل صغير مطالبهُ قليلة ولكن كانت المسؤولية عليهِ قليلة ايضاً واما الآن فقد اصبحت شابة تحتاج الى مساعدات كثيرة كما انهُ اصبح عليها مسؤوليات كثيرة ايضاً اذ ان اللنبي اصبح يعتمد عليها فاذا فشلت كان ذلك سبباً لخسارة الساحة الشرقية وهدر دماء عزيزة من جنود العرب والحلفاء وبكلمة كانت الثورة العربية في باديء الامر صغيرة لا تتعدى حد المناوشات وكان القواد العرب يقومون بها حباً بمجابهة الاخطار والمغامرات واما الآن فقد اصبحت حرباً منظمة يتوقف على الفشل فيها خسارة جسيمة وعلى النجاح ربح طائل

وكان اول خطوة خطوها اعداد هجوم على الخط الحديدي شمالي معان ثم التوجه جنوباً الى المدينة لحمل حاميتها على التسليم وهذا ما سنصفهُ في المقال القادم

١١

معركة غير ناجحة

وفي احد الايام عقد اركان الجيش العربي مجلساً ضم جميع الضباط واتفقوا بالاجماع على مهاجمة العدو من ثلاث جهات او بالاحرى في ثلاث ساحات حربية في آن واحد فكان الجيش العربي النظامي ليولف قلب الجيش تحت قيادة جعفر ويقوم بمهاجمة معان والاستيلاء عليها ثم يؤَلف جويس الضابط الانكليزي رتلاً من السيارات الحربية يسير بها الى الشرق لمهاجمة الخطوط الحديدية وتدميرها بحيث يتعذر على العدو اصلاحها وتؤَلف هذه الفرقة الجناح الايمن ثم يتأَلف الجناح الايسر من لورنس وجماعة من الجيش تحت قيادة مرزوق فيسيرون غرباً ثم شمالاً الى ان يتصلوا بالجيش الانكليزي في جوار اريحا وبذلك يحدقون بالعدو من كل جانب . وهنا نصف للقارىء ماحل بكل من هذه الفرق الثلاث التي كانت تؤَلف الجيش العربي الزاحف لمحاربة الاتراك

كان اليوم الثالث من نيسان السنة ١٩١٨ حينما نهض لورنس وجماعتهُ فتركوا (ابا اللسان) وكانت حياة الربيع تجري في الاجساد فتبعث فيها النشاط بعد خمول

الشتاء وكانت الجماعة مؤلفة من الني جمل من جمال المراحين تحمل المـون والذخائر واضطر الفرسان اولاً الى السير ببطء لكي يماشوا القافلة ويبقوا على اتصال بها ولما كان على هذا الجيش الزاحف ان يجتاز الخط الحديدي ثانية ارسل كشافة في النهار للتجسس ثم المرور بالجيش في الليل دون ان يشعر بهِ العدو وكان لورنس بين افراد الكشافة فوصف المهمة التي انتدب لاجلها كما ياتي

قرب مغيب الشمس ظهرت لنا الخطوط الحديـدية تتعرج بين العوسج النابت حديثاً وكانت السكينة مخيمة في تلك الارجاء فتقدمت غير هياب ولا وجل قاصداً اجتياز الخط الحديدي ثم الانتظار على الجانب الآخر الى ان يعبر باقي الجيش ولمـا لمس خف بعيري الخط الحديدي عرتني قشعريرة سببها ذكرى ما كنا نقاسيهِ في نسف خطوط كهذه وما بعدت بضع خطوات حتى رايت امامي حارساً تركياً كانهُ قد استفاق من سبات عميق ففرك عينيهِ وراى في يدي مسدساً مصوباً اليهِ فكان يلتفت اليَّ تارة كانهُ يتوسل الا اوقع بهِ شراً وطوراً يلتفت الى بندقيته المسنودة الى صخر واطىء على بعد خطوات منهُ ولم يقدر على الوصول اليها. فتقدمت اليهِ وقلت لهُ «الرب رحيم» وكانهُ على جهلهِ اللغة العربية قد فهم معنى الجملة فاستبدل توسلهُ بفرح ظهر في لمعان عينيهِ ولم ينبس ببنت شفة فاستحثثت مطيتي وابتعدت عنهُ وكنت انتظر من وقت الى آخر ان ارى الشاب التركي يسرع الى بندقيتهِ بعـد ان اتجاوز مرمى رصاص المسدس ويطلق عليَّ رصاصة من بندقيتهِ فيلقيني الى الارض صريعاً ولكنهُ كان شهماً فعفا عن رجل سبق ان كان قادراً ان يقتلهُ ولكنهُ لم يفعل

ولما اجتازت الكشافة الخط الحديدي وبعدت عنـهُ قليلاً اوقدنا ناراً يسترشد بها الينا باقي الجيش وانتظرنا هناك الى ان عبرت الجمال سالمة بمـا عليها ومن معها ثم استانفنا المسير الى وادي الجتر حيث القينا عصا الترحال واصطاد بعضنا عدداً من طير

الخبارى فاولمنا وليمة عز مثيلها في تلك الفيافي كما ان الجمال نالت نصيبها من الوليمة فمتعت نفسها بالاعشاب الطريئة النابتة في كل مكان معلنة قدوم فصل الربيع

وبعد ذلك تقدمنا الى عطاره حيث كان ثلاثة من حلفائنا ينتظروننا على احر من الجمر وهم مفلح وفهد وادهوب وكانت خطتنا كما رسمها لنا اللنبي ان نجتاز الخط الحديدي ثانية الى تهمد حيث تستتي قبيلة بني صخر ثم نسير الى مادبا ونعتصم بها جاعلينها مقرنا الاساسي الى ان يمهد لنا اللنبي الطريق بين اريحا والسلط وبذلك نتمكن من الاتصال بالجيش الانكليزي دون ان نطلق من بنادقنا رصاصة واحدة ولكن لا نتمكن من المسير حسب الخطة قبل ان تردنا الاخبار ان الجيش الانكليزي قد احتل السلط وآمن على نفسهِ فيها فبقينا في مكاننا ننتظر الاخبار بشوق زائد وما هي الا مدة قصيرة حتى وردت الانباء ان السلط اصبحت في يد الانكليز وبعد نصف ساعة كنا نسير نحو تهمد حسب الخطة ولكن وردت انباء اخرى في ذلك النهار تقول ان الجيش الانكليزي اخذ يتراجع عن السلط في وجه الاتراك الذين يطاردونهُ في وادي الاردن ثم جاء رسول آخر يحمل الينا تفاصيل الموقعة وهي ان الانكليز بعد مهاجمة السلط مدة يومين كاملين لم يتمكنوا من نيل شيء سوى تدمير بعض الخطوط الحديدية الى الجنوب من معان . فقلقت افكاري (لورنس) لهذه الاخبار وارسلت ادهوب مزوداً بكتاب الى «شتود» و« شيا » وطلبنا اليهِ الاسراع بالجواب فسار على ظهر جواده ينهب الارض نهباً وفي آخر ذلك الليل سمعنا وقع سنابك حصانهِ فاسرعنا اليهِ ولسان حالنا يقول « وعند جهينة الخبر اليقين» فاخبرنا ان احمد جمال باشا مستقر الآن في السلط يشنق من العرب من والى الانكليز وساعدهم ولا يزال الاتراك يتتبعون الانكليز في وادي الاردن والشائع انهم سيسترجعون القدس ايضاً . فصدقت القسم الاول من الاخبار ولم اصدق الخبر الاخير لعلمي انهُ اقرب الى المستحيل منهُ الى الحقيقة

وربما كان تراجع الانكليز حكمة من اللنبي ولكن على كل حال لم يعد لنا عند العرب تلك الثقة التي كانوا يضعونها فينا فاصبحوا يخشون على موقفنا ثم على موقفهم ايضاً

وعزمت بعد سماع تلك الاخبار المقلقة على ان آمر الهنود المرابطين في الازرق بالرجوع الى فيصل ثم اللحاق بهم ولما سرنا في الطريق ووصلنا الى وادي الجنز لقينا الهنود مرابطين هناك فامرتهم بالرجوع ورجعت انا ايضاً اتقدمهم مسافة بعيدة لانني لم اقدر على السير ببطء في حالات كهذه وما عتمنا حتى وصلنا الى قرية اردو ولما اعتلينا تلالها راينا الى شمالنا نور نيران مشتعلة فظننا انها صادرة من قرية جردون فاصخنا باسماعنا الى مكان النار فسمعنا دوياً عميقاً ثم راينا النيران تعلو وتعلو ثم انقسمت الى قسمين فاكدنا اذ ذاك ان جيشنا النظامي يحرق المحطة هناك فاسرعنا الى مستور نستطلعهُ الخبر فوجدنا مخيمهُ خالياً من الاحياء سوى ابن آوى كان يتتبع الروائح المنبعثة من ذلك المكان . فقررت ان اتقدم بسرعة الى فيصل فعنده اجد الخبر اليقين وفي طريقي شاهدت أرجالاً من الجراد تغشي الفضاء فقلت في نفسي هذا صيف سابع اقضيه في الشرق وكنا كلما تقدمنا الى الامام نسمع دوي الرصاص يعلو من جهة سمنه فتاكدنا ان جيشنا قد احتلها فتوجهنا اليها وفي الطريق لاقينا جملاً على ظهره هودج ولما اقتربنا منهُ قال قائده « هذا مولود باشا » فقلت « وهل اصيب مولود باشا باذى ؟ » وكان مولود افضل الضباط في الجيش واخلصهم للقضية التي نحارب لاجلها . ثم سمعت صوتاً ضعيفاً يخرج من الهودج « نعم يا لورنس بك قد اصبت باذى ولكن اشكر الله فاننا قد استولينا على سمنه » فاجبتهُ انني متجه اليها ولما دخلناها وجدنا الاتراك لا يزالون يحاربون وهم بين عاملين عامل الامل بالنصر وعامل الفشل بالانكسار وكان نوري هادئاً وزيد قلقاً جدًّا فسألتهما عن جعفر فاجابا انهما ينتظران منهُ ان يهاجم جردون فقلت لهما انني شاهدت النيران تعلو من تلك الناحية ولا شك

في انهُ قد نجح في هجومهِ وما هي الا طرفة عين حتى وردت الينا رسلهُ قائــلة انهُ استولى على غنائم واسرى عديدين وان الخط من الجهة الشمالية قد تدمر تمامــاً ثم اخبرني نوري انهُ في ذلك الصباح نزل الى غدير الحج ودمر الخطوط الحديــدية هناك ايضاً

وبعد الظهر هدأت المعركة واستولى التعب على المتحاربين وسمعنا ان فيصلاً قد خيم في مكان يدعى وحيدة فسرنا اليهِ ولما وصلنا وانخنا الجمال تقدم اليَّ ورحب بي وبعد تبادل الاخبار وجدت انهُ يعرف اكثر مني عن تراجع اللنبي في الشمال

وكنا نتجول في ساحــة الحرب من مكان الى آخر ونشاهــد النجاح يبسم في وجهنا الى ان عثرنا على نوري واقفاً في مكان عالٍ وعلى وجههِ امارات الخيبة والخوف فسألناه عن السبب فقال لقد نفدت المون الحربية من جعبتنا فارسلنا نستعين ببيساني قائد المدفعية فقال انهُ الآن يطلق القذائف الاخيرة التي معهُ وزاد على ذلك انهُ نصح لنوري ان لا يهاجم العدو الآن الى ان تتوفر لديه المون

وكانت النتيجة ان راينا رجالنا ينسحبون هاربين من المحطــة بعد ان احتلوها واهرقوا دماءهم في سبيل الاستيلاء عليها وكان الجرحى ينظرون الينا شزرًا لتركنا اياهم اسرى بين ايدي الاعداء

وفي صباح اليوم الثامن عشر من شهر نيسان قرر جعفر الانسحاب بجيشهِ العربي الى سمنه تجنباً للوقوع بخسائر فادحة بسبب نفاد الرصاص وبما انهُ صديق حميم لقائد الحامية التركي ارسل اليهِ كتاباً يدعوه فيهِ الى الاستسلام فاجاب القائــد التركي انهُ يحب التسليم لولا ان جمال باشا ارسل اليهِ اوامر مشددة بوجوب المدافعة الى ان ينفذ كل ما معهم من القذائف فاشار جعفر ان يطلق الاتراك قذائفهم في الهواء ثم يسلمون

فيكونون بذلك قد اطاعوا اوامر جمال باشا ولا يعود عليهم لوم ولكن بقي الاتراك يحاولون الى ان تمكن جمال باشا من اختراق الصفوف كلها وارسال النجدات والمون الى الحامية على ظهر الجمال والبغال بعد ان ثبت قدمه في عمان واسترجع قرية جردون ولكن بقي الخط الحديدي مدمراً مدة اسابيع عديدة بعد ذلك

✡ ✡ ✡

١٣

الجيش يستعد للهجوم

ذكرنا في المقال الماضي ان الجيش العربي زحف من العقبة بثلاث فرق وقد وصفنا ما جرى للفرقتين الاولى التي كان يقودها لورنس والاخرى التي تولت الهجوم على معان وكيف ان هاتين الفرقتين قد انتهى بهما الامر الى العسكرة حول معان

ومحاصرتها . وفي هذا المقال نصف ما جرى للفرقـة الثالثة التي كانت تحت قيادة جويس الانكليزي والتي اخذت على عاتقها مهاجمة محطة المدورة وتدمير الخطوط الحديدية بين معان والمدينة ولا نجد وصفاً يطابق الواقع غير الذي ذكره لورنس نفسهُ قال :—

بعد ان استقرت الفرقتان على التلال حـول معان ركبت السيارة وذهبت الى تفقد الضابط «دَوني» الذي اخذ على عاتقهِ تدمير الخطوط الحديدية . وقد قلقت لهُ لانني اعرف انـهُ يجهل العربيـة كما ان الضباط الانكليز الاخرين الذين معـهُ لا يحسنونها . ولما وصلت الى معسكره رايت السيارات واقفة بانتظام مستعدة للسير ووجدت كل فرقة في مكانها المعين لها والضباط جميعهم على اتم استعداد ففرحت لهذا المشهد وكاد يسبقني لساني للقول «لا ينقصكم الا عدو تهاجمونهُ»

وفي فجر اليوم التالي زحفت السيارات بهدوء نحو الخنادق التركية وما قربنا منها حتى راينا جماعة من الجنود الاتراك قد حملوا الاعلام البيضاء وخرجوا الى ملاقاتنـا صاغرين فاستغنمنا الفرصة واسرعنا الى المحطة ووضعنـا تحت احد الجسور القريبة كمية كبيرة من الديناميت ونسفناه حتى لم يبق حجر على حجر فكان ذاك الجسر الاول ثم تقدمنا الى الجسر الثاني وهكذا الى ان نسفنا عدة جسور واخذ المهاجمون يقتربون من المحطة رويداً رويداً من كل جهـة حتى اطبقوا عليها وهجموا كالذئاب المفترسة للسلب والنهب ووقفت الحامية التركية تنظر اليهم دون ان تحرك ساكناً

وبعد ان هدأت المعركة وخمدت الاصوات العالية وكان التعب قد اخذ منا كل مأخذ دققنا الطنب في الفلاة لننام ووضعنا حولنا الحراس الذين كانوا يفاخرون بنا فوقفوا قربنا بالسلاح الكامل كما يقف الحراس على باب قصر بكنهام في لندن(وهو قصر الملك البريطاني) ثم اخذوا يتمشون ذهاباً واياباً محدثين اصواتاً مقلقة فتقدمت اليهم

وعلمتهم كيف يجلس الحراس في الصحراء هادئين لكي يتمكن الباقون من النوم براحة

وبعد ان كان لنا ما شئنا من الراحة والفوز قررنا على ان نهاجم محطة المدورة بعد ثلاثة ايام وهذه هي المحطة التي جئنا اليها مهاجمين قبلًا ولكنا رجعنا عنها بخفي حنين نتعثر باذيال الفشل والخيبة كما عرف القراء في احدى المقالات السابقة

وفي صباح اليوم الثالث المعين ركبنا السيارات عوضاً عن النياق وسرنا الى ان وصلنا تجاه المحطة آملين ان نرى حاميتها قد تولاها الذعر بعد سماعها اخبارنا عن نسف الجسور حولها • واذ اقتربنا منها راينا امامها قطارًا واقفاً ولم نعلم ما اذا كان يحمل موناً وذخائر او انهُ ينقل منها الامتعة استعدادًا للهرب وما كدنا نقترب بضع خطوات حتى راينا الحامية تقذف علينا القنابل من اربعة مدافع رشاشة فتراجعنا الى مكان كنا فيهِ على مأمن من الرصاص وهناك قررنا على ترك المحطة والشروع في تدمير الخطوط الحديدية بطريقة لا يقدر معها فخري باشا القائد التركي على اصلاحها وفي ايام قليلة كانت المسافة بين معان والمدورة اي ثمانين ميلًا وسبع محطات كلها في ايدينا نتصرف بها كيفما نشاء وكان ذلك خاتمة حصار «المدينة» التي انقطعت عنها النجدات الآن

وفي هذه الاثناء قدم الينا من العراق ضابط اسمهُ يونغ ليساعدنا في تنظيم جيشنا وكان يحسن العربية جيدًا نشيط الهمة ذا اختبار واسع في الفنون الحربية . ولكي يالف الموقف تدريجيا كلفتهُ بان يجمع جيوش زيد وناصر ومرزوق الى وحدة تعمل معاً في المحافظة على ما دمرناه من الخطوط الحديدية والمدافعة عن المحطات المحتلة ثم ذهبت الى العقبة ومنها الى السويس لكي اتباحث مع اللنبي بالخطط التي كان قد وضعها للهجوم القادم

وقبل ان اصل الى مخيم اللنبي لقيت الجنرال بولز فقال لي مبتسماً ان الانكليز

الآن في السلط فدهشت لهذا الخبر غير المنتظر ولكي يزيل دهشتي اخذ في ايضاح الحالة قائلاً ان رؤساء قبيلة بني صخر قد حضروا الى اريحا وتطوعوا لخدمة الجيش الانكليزي وتقديم رجالهم البالغين عشرين الفاً في جوار تهمد فسألته من هو رئيس بني صخر فقال بلهجة الانتصار هو فهد وكأنهُ شعر بانهُ اكتشف شيئاً في منطقتي اقدر على اكتشافهِ وانا اعرف حق المعرفة ان فهداً لا يقدر ان يجمع اكثر من اربعمائة رجل فضلاً عن ان تهمد في تلك الساعة كانت خالية من بني صخر تماماً لانهم قد ارتحلوا جنوباً لمساعدة الضابط الجديد يونغ فما كان هذا الايضاح الا ليزيدني حيرة وارتباكاً فاسرعت الى المقر الرئيسي واستطلعت الاخبار فوجدتها كما رواها بولز وذلك ان الفرسان الانكليز ساروا الى تلال موآب معتمدين على مواعيد شيوخ زبن العرقوبية وهؤلاء الشيوخ كانوا قبلاً قد انحدروا الى القدس ليخدعوا اللنبي ويدفعوه الى وصلهم ونفحهم بالهدايا الثمينة . ولما وصل قائد الفرسان بفرقتهِ الى المكان المعين لم يجد احداً من المساعدين ورأى نفسهُ امام نيران الاتراك الذين تقدموا الى محاربتهِ ولو لم يسرع بالتقهقر لكان وقع مع جيشهِ اسيراً في يد الاتراك وافقدنا قوة فرسانهِ التي لا يستخف بها

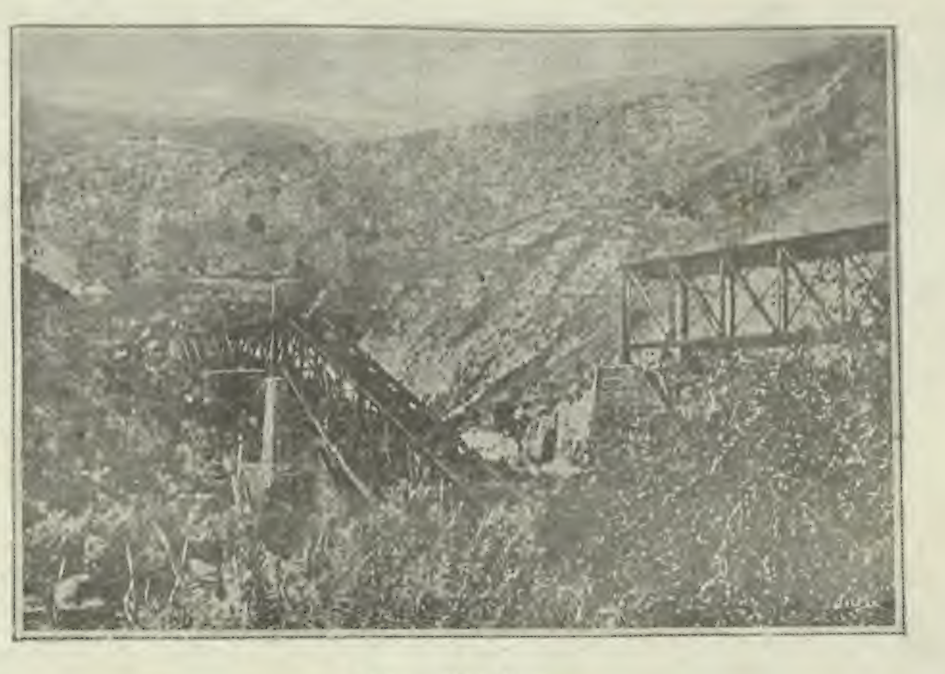
دخلت على اللنبي فوجدتهُ كئيباً مفكراً فسألتهُ عن السبب فقال ان الالمان يقومون بهجوم عنيف في الساحة الغربية وذلك يمنع عنهُ المساعدة التي كان الحلفاء قد وعدوه بها وعليهِ ان يحافظ على القدس دون ان يفقد جندياً واحداً من جيشهِ لصعوبة الاستعاضة عنهُ بجندي آخر

غير ان الوزارة الحربية وعدتهُ بانها ترسل اليهِ فيلقاً من الهنود المرابطين في العراق وبذلك يتمكن من اعادة تنظيم جيشهِ استعداداً للهجوم في اواخر صيف السنة ١٩١٨ وعندما كنا نتناول الشاي ذكر اللنبي فرقة الجمالة في سيناء وانهُ مزمع على حلها وتوزيعها على الفرق الموجودة فاستغنمت الفرصة وسعيت جهدي لديهِ ولدى مدير

ضاح
لجيش،
ثير
في
عمان
قد
ـيرة
بولز
بن
عوه
كان
الى
قوة

ـان
قد
ربه

اق
١٩
لها
ـير



جسر اليرموك بعد نسفه

النقليات في الجيش للحصول على عـدد من الجمال اضمهُ الى الجيش العربي فنجحت وكان لي من تلك الفرقة المنحلّة الفا جمل . فحملت هذه الانباء ورجعت بها الى فيصل الذي كان معسكراً في ابي اللسان وبعـد ان دخلت خيمتهُ واستقر بي المقام لم ارد ان افاجئهُ بهذا النبأ السار فاخذنا نتحدث عن كل موضوع تحت الشمس من التاريخ القديم الى الحديث الى امطار الربيع والجياد الصافنات واخيراً قلت لهُ مع قليل من الاهتمام ان اللنبي قد نفحنا بهبة ملكية وهي انهُ اعطانا الفي جمل. فقام وقبلني بين عيني ثم صفق بكفيهِ فظهر البواب هجرس على البـاب فقـال لهُ فيصل « اذهب الآن وادعوهم اليَّ » فاجابـهُ البواب « ادعو مَن؟ » فقال لهُ فيصل « فهـداً وعبد الله الفير وزعلاً وو » فقال البواب « الا ادعو لك مرزوقاً ؟ » فاجابهُ فيصل شاتمـاً اياه واختفى البواب عن الابصار وهممت بالرحيل فمنعني فيصل وقال يجب ان تبقى معنا دائماً وليس فقط الى ان نصل الى دمشق

وما هو الا وقت قصير حتى سمعنا وقع الاقدام خارج الخيمة ثم عقبهُ هدوء اذ كان القادمون يرتبون ثيابهم وشعورهم قبل دخولهم احتراماً لقائدهم فيصل ثم دخلوا الواحد بعد الآخر وكان كل واحد يقول « ان شاء الله خير ؟ » ثم يجلس على الطنفسة وكان فيصل يقول لكل واحد « الحمد لله » ولما دخل الجميع قال لهم فيصل « ان الله قد ارسل الينا وسائط النصر — الفي جمـل للركوب وسنسير الى حربنا والى حريتنا دون عائق ما ». فلما سمعوا هذا النبأ التفتوا اليَّ ليروا ما اذا كانت لي يد في الحصول على هذه الهبة فقلت لهم « هي من خير اللنبي » فصرخوا « اطال الله حياتـهُ وحياتك » وعندها وقفت وودعت الحضور وخرجت الى الضابط جويس لاخـبره بكل ما جرى

١٣

قبل الهجوم العام

اطلعت جويس على خبر الالني جمل فلم يكن اقل فرحاً من فيصل عند اطلاعهِ على الخبر وهكذا اخذنا نضع لها الخطط قبل وصولها ونهيء لها اماكن للمرعى وما شاكل اثناء الصيف المقبل وفي الوقت نفسهِ كان علينا ان نحافظ على ما احتللناه حول معان من المحطات والقرى لكي نزحف الى الشمال عندما تاتينا الاوامر من اللنبي ٠

اخذت جبهة الثورة بالاتساع فكان فيصل يقبع في خيمتهِ معلماً ومرشدًا وناشرًا دعوتهُ بين شيوخ القبائل الذين كانوا يأتون اليهِ ٠ وكانت الجيوش في الوقت نفسهِ تُبلي البلاء الحسن في ساحة القتال ٠ وكان الامير زيد معسكرًا بنصف الجيش في الوحيدة يملاه النشاط والهمة وكانهُ قد بعث تلك الروح في الضباط والجنود حولهُ حتى اصبح جيشهُ على اتم الاستعداد لمقابلة العدو وهكذا كان الاخوان فيصل وزيد الاول برصانتهِ وهدوئهِ وكبح جماح كل حركة تدل على طيش او رعونة والثاني بنشاطهِ وهمتهِ يبعثان الحياة في كل من استنام للخمول والكسل

بقينا مدة اسابيع نحمل على العدو الحملة تلو الحملة فكان زيد وجعفر يشغلانه حول معان وزحف الشريف ناصر برفقة بيك وهورنبي الى الحسا في الشمال واحتلوا مسافة ثمانية اميال من الخطوط الحديدية وذلك احبط مساعي الاتراك للهجوم ثانية على فيصل في ابي اللسان

وفي هذه الساعة رايتني قادراً على ترك الساحة الحربية والذهاب الى اللنبي للوقوف على خططهِ الجديدة ولما وصلت الى مقر القيادة العام آنست نشاطاً واهتماماً واملاً بالفوز اكثر من الماضي وكان الجيش الموعود بهِ اللنبي يرد من العراق والهند في الوقت المعين فيستقبلهُ الضباط ويقسمونهُ الى فرق متعددة ثم يتولون تعليمها وتدريبها وفي الخامس عشر من حزيران عقد اركان حرب اللنبي مؤتمراً حربياً قرروا فيهِ القيام بهجوم عام في شهر ايلول المقبل لتحقيق ما فرضهُ سمطس على اللنبي وهو احتلال دمشق وحلب اذا مكنتهُ الاحوال من ذلك ٠ وكان نصيب العرب من هذا الهجوم ان يحتلوا درعا والجهات الشرقية كما كان قد تعين لهم سابقاً خصوصاً بعد ان اصبحوا اقوى من قبل بفضل الالفي جمل للركوب

وكان اللنبي اثناء الصيف يتنقل من مكان الى آخر متفقداً الجيش الغازي ليكون على يقين من ان كل الفرق مستعدة للعمل معاً وخصوصاً الفرق الجديدة التي قدمت مؤخراً من العراق والهند وكان حيثما ذهب يرى الاستعداد قائماً على قدم وساق حتى اصبح ايمانهُ بالنصر قوياً وقد فرض على جيشهِ ثلاثين الف اسير من الاعداء ٠ غير ان برتولماوس احد اركان حربهِ كان يرى الهجوم في ايلول سابقاً لاوانهِ لاعتقاده ان الجيش لا يكون تام الاستعداد في ذلك الوقت ولكن رأى انهُ يمكن الزحف اولاً على خط موازٍ للشاطيء لاحتلال الرملة وجعلها مقراً للمؤن ولكن هذه الحركة تنبه الاتراك لتحصين الشواطيء الامر الذي كان يخافهُ اللنبي كما سيأتي

في القطعة التالية ولكن الاتراك حسب تصرفهم كانوا يجهلون ما يدور في راس القائد الانكليزي من الخطط

كانت خطة اللنبي العامة ان يجمع قوى جيشهِ من خيالة ومشاة في بساتين الليمون والزيتون في الرملة وفي الوقت عينهِ يجمع في وادي الاردن كل الخيام القديمة المجلوبة من مصر وكل الجمال الجربة والمدافع القديمة التي اغتنمها من الاعداء وذلك لكي يوهم الاتراك انهُ سيهاجمهم في وادي الاردن بينما كان قصده الحقيقي مهاجمتهم من الغرب بالقرب من الشواطىء البحرية والذي شجع اللنبي على الاعتقاد ان خطتهُ ناجحةٌ حذر الاتراك الدائم في وادي الاردن وغفلتهم عن تحصين الخط الغربي وكل حركة كان يقوم بها في السلط وجوارها كان يقابلها العدو بحركة اخرى معاكسة بينما في الخط الغربي مكان الخطر الحقيقي كان العدو غافلًا لا قوة لهُ ولا مناعة

واراد اللنبي ان نتمم خطتهُ بان نشغل العدو بنشاط في جوار عمان ونبهنا الى الخطر قائلًا ان النصر بالرغم من ظهور تباشيره لنا فانهُ معلق بخيط ضعيف لانهُ اذا عرف العدو خطتنا وانسحب من الشاطىء مسافة سبعة او ثمانية اميال فقط ثم انصب علينا بقواتهِ من الداخل افسد علينا الخطة واوقعنا في حالة صعبة اذ نضطر ان ننقل قواتنا من الشواطىء الى وادي الاردن لمجابهتهِ وفي هذا من التاخير والخطر ما فيهِ . كما ان اللنبي حذرنا من تعريض الجيش العربي الى كل خطر هو في غنى عنهُ

وبعد تمام المخابرة مع اللنبي اسرعت الى القاهرة في مصر قاصداً ان اذهب بعد ذلك الى العقبة ولكن جاءت الاخبار ان الاتراك قد انتصروا على ناصر في الحسا وهم يفكرون في مهاجمة فيصل في ابي اللسان في اواخر شهر آب اي حينما نكون في استعداد للزحف شمالاً وهذا الهجوم من جهة الاتراك يعرقل خطتنا كلها فجربت ان ادبر حركة اخرى تعوق الاتراك عن الهجوم لكي يتسع امامنا الوقت فنسبقهم الى الشمال ورايت انهُ يجب ارسال فرقة من الجيش لمناوشة الاتراك حول ابي اللسان

فابرقت الى اللنبي بالامر وبعد تبادل برقيات متعددة ارسل الينـا ضابطاً انكليزيا يقود ثلاثمائة جندي لاستخدامهم في مناوشة الاتراك واوصانا الا نقابلهم في معركة كبرى لئـلا نخسر فتمتد الخسارة الى الساحات الاخرى واصر علينـا بان نناوشهم مناوشة فقط مدة شهر على الاقل الى ان نتمم خطتنا

ثم بعد زمن اطلعَنا اللنبي على تفاصيل خطتهِ فقال انهُ ينوي القيـام بالهجوم في التاسع عشر من ايلول وطلب الينا ان نزحف قبلهُ باربعة ايام على الاكثر وعلى الاقل بيومين وكانت كلماتهُ لي كما ياتي :

«ان ثلاثة رجال وصبيا واحداً مسلحين بمسدسات فقط امام درعا في السادس عشر من ايلول هي عندي افضل من ثلاثة الاف مقاتل بعد او قبل ذلك باسبوع» . وفهمت من ذلك ان اللنبي لم يكن يهتم لقوتنا الحربية بل اراد استخدامنا لاشغال العدو فقط . فمن جهتي الانكليزية كنت اوافق على فكر اللنبي ولكن من جهتي العربية لم ارد ان يكون الجيش العربي خيالاً فقط اذ ان ذلك يفقده احترامهُ لنفسهِ كما انهُ لا ينيلهُ مطلبهُ عند قطف ثمار النصر الاخير

ولهذا عزمت على الزحف بخمسماية خيال مع مدفعية فرنسية جبليـة عيار قطعاتها ٦٥، ومدافع رشاشة وسيارتين مصفحتين وعـدد من الجنـود العمال لحفر الخنادق والاسراب وطيارتين وكشافة ممتطية الجمال فاقف بها في الازرق ثم في السادس عشر من ايلول نحيط جميعنا بدرعا وندمر الخطوط الحديدية حولها وبعد ذلك بيومين نعبر الخط الحجازي الى الشرق ونتربص هناك الى ان نقف على اخبار اللنبي

وحيطة للامر بدانا في ابتياع الشعير والقوت للحيوانات من تجار جبل الدروز وخزناها كلها في الازرق

وكان نوري الشعلان يرافقنا بجماعة من قوم عرب الرولا وهكذا عرب السردية والسراحين والحوارنة تحت قيادة طلال الحريدن

وقبل الهجوم العام دعا اللنبي ضباط الجيش العربي المقدمين ووزع عليهم الاوسمة والنياشين تشجيعاً لهم واعترافاً بالشجاعة التي ابدوها في حروب معان

وكان جعفر باشا من مستحقي النيشان من الدرجة الاولى فذهب الى فلسطين لياخذه بحفلة حافلة واقيم لهُ مهرجان جميل جداً

وتطوع نوري باشا السعيد لقيادة الحملة على درعا ونظرًا لشجاعتـهِ وحكمتهِ اجيب الى طلبهِ وحالاً ابتـدا في اختيار افضل اربعماية جندي في الجيش . وبدأت الاستعدادات الحربية العسكرية وامتلات المعسكرات مونـاً وذخائر وعتاداً حربية وعلت الجلبة والحركة استعداداً للزحف

١٤

نفور وقتي بين فيصل وابيه الملك حسين

ذكرنا للقارىء خبر قدوم فرقة من الجمالة لاشغال العدو مدة من الزمن ريثما يتمكن الجيش العربي من القيام بالاستعدادات للهجوم على درعا وقد قامت تلك الفرقة بالمهمة التي انتدبت لها تحت قيادة بكستن احسن قيام وبعد ان رافقها لورنس مدة شهر تقريباً في روحاتها وغدواتها وقادها اخيرًا الى جوار الازرق حيث امن عليها شر التيهان قفل راجعاً الى الجنوب ليجتمع بفيصل ويطلعهُ على الحالة العمومية في كل مكان يعسكر فيهِ الجيش العربي

فاخذ لورنس السيارات المصفحة وسار بها الى ابي اللسان حيث كان فيصل معسكرًا وما طال الوقت حتى قدمت باخرة من جدة ميناء مكة حاملة بريد فيصل واول ما اخذه بيده كان جريدة القبلة جريدة الملك حسين الرسمية ولما فض ختامها رأى في الصفحة الاولى منشورًا ملكيا جاء فيهِ « ان قوماً من البلهاء المجانين يلقبون جعفر باشا بالقائد العام للقوات العربية الشمالية بينما ليس في الجيش العربي كلهِ رتبة

تناسب هذا اللقب واعلى رتبة قائد مئة (كابتن) وما الشيخ جعفر الا كباقي الضباط يقوم بالواجب عليهِ »

وقد نشر الملك حسين هذا المنشور بعد ان عرف بالحفلة التي اقيمت لجعفر باشا في القدس والتي قلد فيها اللنبي جعفراً المذكور وساماً عالي الرتبة . وكان فيصل غير عالم بما نشره ابوه فوقع عليهِ الخبر وقوع الصاعقة . وكان الباعث الحقيقي لنشر البيان الملكي قلق الملك حسين وخوفهُ من الضباط العراقيين والسوريين وسكان القرى في الشمال من ان يستأثروا بالسلطة بانفسهم بعد ان يجلو الاتراك عن سوريا وعرف انهم كانوا يحاربون ليس ليزيدوا في ممتلكاتهِ بل لكي يحرروا بلادهم من النير التركي

ولما علم جعفر بالبيان الملكي تقدم الى فيصل ورفع عريضة استقالتهِ وتبعهُ في ذلك عدد من الضباط فالح عليهم لورنس الا يهتموا لتصريح رجل ناهز السبعين من العمر وهو جالس في مكة منقطعاً عن العالم وغير عالم بما يجري فيهِ وهكذا فيصل نفسهُ رفض استقالتهم قائلاً ان امر تعيينهم في مراكزهم صدر منهُ وليس من ابيه وان ما في البيان من قساوة اللهجة والتحقير واقع عليهِ لا عليهم

ثم ارسل فيصل الى مكة نبأ برقيا جواباً على ذلك البيان مخطئاً فيهِ اباه فورد اليهِ من مكة برقية اخرى اشد لهجة من البيان جاء فيها ان فيصلاً اصبح خائناً متمردًا فاجاب فيصل مستقيلاً من القيادة العامة فعين الملك حسين زيداً فرفض زيد التعيين حالاً وهكذا اخذت البرقيات تسير بين العقبة ومكة حاملة ما كان يختلج في صدر الملك الشيخ وابنيهِ فيصل وزيد . ونتج من كل ذلك وقوف الحركة في ابي اللسان وسكنت الاستعدادات وفي تلك الساعة خاطب دَوني لورنس بالتلفون سائلاً ما اذا كان هناك امل بارجاع العلاقات الودية بين الاب وابنهِ فاجابهُ لورنس ان الامل اصبح ضعيفاً ولكن سيسعى جهده الى اصلاح ذات البين . والى القارىء ما قالهُ لورنس عن نفسهِ في تلك الساعة

رجعت الى نفسي في ذلك الموقف الحرج ورايت امامي ثلاث طرق يجب اختيار احداها الاولى الضغط الشديـد على الملك حسين واضطراره الى الرجوع عما جاء في البيان والثانية ان نتجاهل الامر كلهُ ونسير حسب مـا نراه مناسباً دن ان نعتبر ما يقولهُ الملك الشيخ والثالثة ان ننادي بفيصل ملكاً مستقلًا عن ابيـهِ وكان لكل واحدة من هذه الطرق محبذون ومقبحون ولكن راينا انـهُ الافضل في الاول ان نخبر النبي بالامر لعلهُ يتمكن من تسوية الخلاف بالتي هي احسن فابرقت اليهِ طالباً ان يتوسط في حل المشكل

عرفت ان الملك حسين متشبث برايهِ وقـد يطول الامر مدة اسابيع قبـل ان نضطره الى الرجوع عما صرح بهِ ولو كنا كما في السابق لكان بوسعنا ان ننتظر عدة اسابيع ولكن الآن اصبحنا على بعد ثلاثة ايام من الهجوم الكبير فكان من اللازم السير في الحملة على درعا بينما الدوائر السياسية في مصر تحل الامر على ما تراه مناسباً وكان عليَّ واجبات ثلاثة الاول ان اخبر نوري الشعلان بانني غير قادر على ملاقاتهِ في الازرق في الوقت الذي عينتهُ لهُ قبلًا مـع ان ذلك قد يفقدنا قوة نوري ولكن فضلت ذلك على ترك جيش فيصل ومدافع بيساني الفرنسي

والواجب الثاني كان ان آمر بتسيير المؤن والذخائر قبـل زحف الجيش لكي يصل الاثنان الى الازرق في وقت واحد

والواجب الثالث والاهم السير بالجيش في اليوم المناسب بعد ان نُرجع الى الضباط نشاطهم الذي اصبح الآن ضعيفاً بسبب هـذا الحادث فاستعملت كل مـا لديَّ من الحجج المقنعة وكان نوري السعيد وهـو في مقدمة الضباط يتلهب نشاطـاً للحرب ولكنهُ بعد بيان الملك حسين خمدت فيهِ نـيران نشاطهِ فاقنعتهُ بالسير والعمل فقبل على شرط انهُ يسير معي الى الازرق فقط فاذا رجع الملك حسين عن كلامهِ استمر في السير والا ترك الحرب ورجع الى الوراء

وبعد اللتيا والتي زحف الجيش بخيلهِ ورجلهِ وكان فيهِ العربي والانكليزي والفرنسي والهندي وغيرهم حتى صدق عليهِ قول المتنبي

خميس بشرق الارض والغرب زحفه
وفي أُذن الجوزاء منهُ زمازم
تجمّع فيهِ كل لِسن وامةٍ
فما يُفهم الحدّاثَ الا التراجمُ

وكانت عقدة العقد كما يعرف القارىء ان أُرجع الى فيصل منزلتهُ الاولى والا عبثاً نحاول ان نهاجم درعا ودمشق. ان سقوط درعا بدون فيصل ليس مهماً كسقوط دمشق لان سقوط الاولى يساعد الجيش الانكليزي على النصر النهائي ولكن دخول فيصل الى دمشق الشام ضروري جداً لاجتناء ثمر المشقات التي قاسيناها منذ بدء الثورة

وكان اللنبي وولسن اثناء الزحف العربي يلحون على الملك حسين بالرجوع عما في البيان وقد عزمت على انهُ اذا فشلت المخابرات بين اللنبي والملك حسين ادفع الحكومة الانكليزية الى معاضدة فيصل مستقلًا عن ابيه وادخل بهِ الى دمشق كامير حاكم وكان هذا سهلًا عليّ سوى انني لم ارد الالتجاء اليهِ الا بعد ان اجرب الطرق الاخرى تجنباً لايقاع الخلاف بين ابن وابيه خصوصاً ان الثورة العربية منذ بدئها استمرت دون ان تشعر بشيء من الانقسام

وكان الملك حسين يدلي بما لديه من البراهين مؤيداً موقفهُ الذي اتخذه غير فاهم ما لتداخلهِ في امور الجيش العربي الشمالي من التاثير الهادم لخططنا وكان علينا ان نفهمهُ موقفهُ الحقيقي بصريح العبارة وكان يجيب كمن لا يصغي وكانت رسائلهُ البرقية

ترد الى مصر اولاً ثم تاتينا الى العقبة ثم ترسل لتلحق بنا في طريقنا بواسطة سيارة خاصة فكنت اخذ تلك البرقيات قبل ان يتلقاها فيصل واطلع عليها فاذا رايتها شديدة اللهجة تزيد في شقة الخلاف شوهت كلماتها وجعلت اولها اخرها واخرها اولها ثم ادفع بها الى فيصل فيرجعها مكتوباً عليها «مشوهة» ولحسن الحظ لم تكن مكة لتعيد رسالة مشوهة بل كانت كل مرة ترسل رسالة جديدة فاتصرف بها كما اتصرف بالتي سبقتها الى ان في احد الايام جاءت رسالة اولها عتاب ولوم واخرها اعتذار وطلب السماح فحذفت القسم الاول ثم دفعت بالقسم الثاني الى فيصل ولما اطلع عليه سُر بهِ جداً وجمع حولهُ ضباطهُ ثم تلاها عليهم وختمها بقولهِ «هذه البرقية قد انقذت شرفنا من التحقير»

وبعد ذلك بثلاث ساعات كان الجيش يسير بنشاط فركبت سيارة سريعة وسبقتهُ الى الازرق لعلي اتمكن هناك من مقابلة نوري الشعلان فاساعده على جمع قومهِ عرب الرولا ليشتركوا معنا في الهجوم على درعا

٭ ٭ ٭

١٥

مناوشات ناجحة

زحف الجيش من ابي اللسان كما ذكرنا في المقال الماضي وشبح الشقاق والخلاف مخيم فوقهُ فسار يقدم خطوة الى الامام ثم يرجع اخرى الى الوراء ولكن بعد ان ارسل الملك حسين برقيتهُ الاخيرة الى ابنهِ فيصل قائد الحملة العام والتي اعتذر بها عن موقفهِ الماضي انقلبت الحال ودبت في الجيش روح الحمية والنشاط فزحف تستحثهُ الآمال بالنصر وتدفعهُ عقيدتهُ بانهُ يحارب لاجل حريتهِ

وفي زحف الجيش نحو درعا عرجت فرقة منهُ على الخط الحديدي شمالي عمان قرب مكان يدعى ام طي ودمرت هناك الجسور الثلاثة فامن بذلك على مؤخرتهِ من الجيش التركي المرابط في عمان نفسها وعرقل هجوم العدو على زيد الذي كان باقياً في جوار ابي اللسان

وبعد مشقات وصعوبات واجتياز الخط الحديدي من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق تمكن الجيش من الوصول الى تل عرار الذي يشرف على السهل الواسع المنبسط والتي تقع فيهِ محطات ثلاث هي اهم المراكز في يد العدو وهي درعا والمزاريب

والغزالة . وكان لورنس ينظر بباصرتهِ الى هذه المحطات الثلاث فيراهـا امامهُ غنيمة باردة ثم ينظر ببصيرتهِ الى الشمال فيرى دمشق المقر العـام للجيش التركي المرابط في سوريا وحلقة الوصل الوحيدة بين الفيلقين الرابع والسابع وعلى راسيها جمال باشا وبين القسطنطينية عاصمة المملكة التركيـة . والى الجنـوب فكان يرى عمان ومعان والمدينة المنورة فيراها منفصلة عن كل مساعـدة خارجية ولا تلبث في تلك الحالة ان تستسلم صاغرة . والى الغرب كان يرى القائـد الالماني ليمان فون سندرس منفرداً بقوتهِ في الناصرة ونابلس ووادي الاردن . كان ذلك في السابع عشر من ايلول وهو اليوم الذي عينهُ اللنبي وكان هـذا عازماً ان يقوم بهجوم عـام في التاسع عشر من الشهر المذكور

راى لورنس كل ذلك فكاد يلمس بيده النصر الاخير نظر قواد الجيش العربي الى درعا بواسطة النظارة المكبرة فراوا مطارها يعج بالطيارات التي كانت تخرج منهُ استعداداً للمعركة وكانت الحامية تخرج من مراكزها فتطلق بنادقها على الجيش العربي بانتظام تام الصف تلو الصف وكان بين الجيشين مسافة اربعة اميال فقط وانسل لورنس في تلك الساعة مع جماعة من الخـبراء في الالغام واخذوا ينسفون الخط الحديـدي ولكن لم ينتظر الاتراك طويلاً حتى ارسلوا فوق الجيش العربي طيارات اخذت ترمي عليهم القذائف فوجه اليها بيساني مدافعهُ الرشاشة ونوري مدافعهُ من نوع هوتشكيس فهربت الطيارات ثم عادت محلقة في الفضاء على مستوى اعلى لكي لا تصيبها قذائف المدافع ولكن علوها الشاهق افقدها صحة الرماية فكانت لا تصيب الا الصخور الصماء وهذا ما ساعد الجيش العربي على حفر الخنادق للتحصن ودس الالغام تحت الخط الحديدي . وفي تلك الساعة والفضاء ملاه ازيز الطيارات راينا طياراً انكليزياً قادماً من الافق البعيد على متن طيارة تبيناها حين اقترابها فرايناها قديمة تكاد تسقط من تلقاء نفسها ولكن طيارها كان شجاعاً فدخل بها بين طيارات الاعداء التي تفرقت

لتسبر غور عدوها الجديد وتقف على مقدار قوتهِ ثم جـدَّت في الطيران وراءه بقصد الفتك بهِ وكان ذلك مساعداً لنا اذ خلا لنا الجو ليس من قبيل الاستعارة بـل من قبيل الحقيقة فجمع لورنس ثلاثمـائة جندي نظاميين وامرهم بالزحف الى المزاريب ثم اتبع بهم جماعة من الفلاحين المتطوعين واستعد هو للزحف وراءهم على راس حرسهِ الشخصي لو لم يحدث امر خطير منعهُ من ذلك وهو ان الطيار الانكليزي بعد هربهِ امام الاعداء كما وصفنا سابقاً عـاد فظهر ثانية وعلى كل جانب من جانبيـهِ ثلاث طيارات تراشقهُ بالرصاص وهو يرد لها من البضاعة نفسها التي كانت ترسلها اليهِ ثم اشار الى لورنس بان وقوده قد نفد فهيأوا لهُ مكاناً وسقط الى الارض سالماً فاسرع لورنس الى نجدتهِ والعودة بهِ الى المعسكر على تل عرار

وبعد ذلـك زحف لورنس على راس حرسهِ في صفين متوازيـين الى المزاريب ولكن شاهدتهم طيـارة تركية فهاجمتهم وقتلت جملين من الجمال فترجل الراكبان اللذان قتل جملاهما واعتليا متني جملين من جمـال رفاقهم واستمرت الفرقة في سيرها متفرقة هنا وهناك لكي لا تصيبها قذائف الطيـارة فوصلوا الى المزاريب مقصدهم ووجدوا درزي ابن دغمي قد خف لاستقبالهم بالاخبـار ان جيش نوري السعيد على مسافة ميلين الى الوراء فاستقوا لهم ولجمالهم لانهُ كان يومـاً حاراً ثم استعدوا لهجوم آخر واذ عزمـوا على السير الى درعا نفسها راوا ذلك صعباً لان الاتراك كانوا قـد حصنوها جيداً فولوا وجوههم شطر محطة اخرى تدعى تل الشهاب فهاجموها واحتلوها ثم انصبت اليها انهر من الفلاحين الحوارنة وغيرهم للسلب والنهب فكانوا يكسرون الابواب والشبابيك ولا يثنيهم شيء لا الاوامر ولا السلطة واكتفى لورنس نفسهُ بان سار مع يونغ وجماعة من اتباعها لقطع الاسلاك التلغرافية ونسف الخط الحديدي. وفي ذلك الوقت توجهت اليهم قـاطرة من درعا تجر وراءهـا عدداً من الشاحنات

المملوءة جنوداً ولما شاهدت الالغـام تتفجر على طول الخط تراجعت الى الوراء قانعة من الغنيمة بالاياب

ولما عرف الفلاحون المجاورون بما حصل هرعوا من قراهم للالتحاق بالجيش العربي طالبين اليه بان يزحف الى درعا في تلك الليلة ولكن لم يرد قواد الجيش ذلك خوفاً من انهم اذا فشلوا في هجومهم وتراجعوا الى الوراء يعرضون كل هولاء الفلاحـين لسخط الاتراك ولهذا قدموا لهم الاعذار ووعدوهم انهم يزحفون الى درعـا عندما يرون انفسهم قادرين على احتلالها والاحتفاظ بها وكأن الفلاحين قد فهموا هذه الاعذار فاستكانوا ورجعوا كل الى قريتهِ وبقي لورنس وجماعتهُ يعدون العـدة لهجوم آخر بعد ان يطلع على مواقف الفرق الاخرى في الجيش

وفي صباح اليوم التالي بدأت الجيوش المرابطة في تل عرار ترد تترى الى المزاريب وكتب لورنس الى جويس وجماعتهِ انهُ ومن معهُ من الجيش سيزحفون جنوباً الى قرية « نصيب » ليكملوا الدائرة حول درعا واشار اليهم ان يتقدموا الى ام طي وينتظروه هناك لانها كانت افضل مكان للعسكرة اذ انها واقعة على مسافـات متساوية بين درعا وجبل الدروز وصحراء عرب الرولا فضلاً عن ان المياه متوفرة فيها وعزم لورنس على البقاء هناك الى ان ترده اخبار اللنبي الذي كان في ذلـك الوقت يهاجم الاتراك في فلسطين . واحتلال ام طي يفصل الفيلق الرابع المرابط في دمشق عن ذلك الذي يحارب في الجنوب

فسار لورنس حسب الخطة التي وضعها وبعد مشقات ومعارك ومناوشات تمكن من الوصول الى ام طي البلدة التي جعلها متجه عسكره . وعندمـا وصل الى ابوابها وجد جويس قد سبقهُ اليها حسب الوعد وكانت اخبـار انتصاراتهم تنتشر في تلك

الانحاء بسرعة فائقة فاتى اليهم السكان من كل حدب وصوب ناقمين على الاتراك وطالبين الانضمام الى الجيش العربي

وكانت الطيارات مدة اقامة الجيش العربي في ام طي تهاجمه مهاجمة متواصلة ولكن دون ان تنال منهُ مأرباً لانها كانت تخاف مدافعهُ فتعلو الى طبقات عالية الى درجة تفقد معها الدقة في القاء القنابل فتخطىء المرمى

برهن الجيش العربي للاتراك في احتلال المحطات حول درعا ان المطار وكل ما اقاموه من الحصون حولها لم ينفعها شيئاً واصبحت بعد ذلك معرضة للسيارات الحربية المصفحة وبعد ان استقر المقام بالجيش العربي في ام طي مكث زمناً قصيراً طلباً للراحة التي كان في مسيس الحاجة اليها خاصة لورنس الذي كان قد اخذ منهُ التعب كل مأخذ فنام دون ان يقلقهُ ازيز الطيارات وقذائفها التي كانت تلقيها من وقت الى آخر . وفي المقال القادم نصف للقارىء الزحف على درعا نفسها التي لم يطل بعدها الوقت حتى انكسر الاتراك شر كسرة ودخل فيصل ولورنس الى دمشق منتصرين

١٦

سقوط درعا

كانت ام طي القرية التي عسكر فيها الجيش العربي مركزاً حربيا هامـا لانهُ يشرف على الخطوط الحديدية الثلاثة التي تلتقي في درعا · غير ان اهمية هذا المركز كانت تقتضي صعوبات جمة في حمايتهِ والمحافظة عليهِ خصوصاً انهُ كان واقعاً على مسافة اثني عشر ميلًا من درعا حيث كان لدى الجيش التركي تسع طيارات تقدر بكل سهولة ان تحلق فوقهُ اية ساعة ارادت وتلقي عليهِ القذائف وهذا ما كانت تفعلهُ حتى عيل صبر لورنس وقرر على الذهاب الى فلسطين لطلب قوة هوائية ترد عنهم شر الطيارات التركية

وبعد ان سافر لورنس الى الازرق وقابل فيصلًا ذهب الى الرملة ثم الى محل القيادة العامة ليقابل اللنبي . وهنا نترك الكلام الورنس نفسهِ اذ قال : —

دخلت على اللنبي فوجدتهُ مرتاحاً لما يقوم بهِ جيشهُ في الهجوم العام وكان احد اركان حربهِ ياتي اليهِ كل خمس عشرة دقيقة يبشره بنصر جديد احرزتهُ جيوشهُ فكانت تبرق اساريره بشراً

ثم حول نظره اليَّ واخبرني عن خططهِ المقبلة فقال ان فلسطين اصبحت في حوزتي الآن وقد تراجع العدو الى الشمال ظاناً اننا سنتركهُ ينسحب بانتظام ولكن لا فقد ارسلت في اثره شيطور على راس النيوزيلنديين ليلحق بهِ من الاردن الى عمان وبارو على راس الجيش الهندي ليتبعهُ من الاردن الى درعا وشوفل على راس الاوستراليين ليقتفي اثره من الاردن الى القنيطرة ثم يجتمع هولاء الثلاثة في جيش واحد وينضم اليهم الجيش العربي ايضاً ويدخل الجميع مدينة دمشق التاريخية المشهورة

ثم سألني عن موقفي في ام طي فقلت لهُ اننا عاجزون امام طيارات الاتراك وحالاً خصص لي ثلاث طيارات ترافقني الى ام طي لتقاوم القوة الهوائية التركية

وفي طريقي راجعاً مررت بفيصل واخبرتهُ بكل ما جرى فطار فرحاً لوقوفهِ على اخبار اللنبي وانتصاراتهِ ثم اوعزت اليهِ والى نوري الشعلان بالسفر الى ام طي لكي يكونا على مقربة من دمشق فيدخلانها مع الجيش المنتصر فذهبنا الى ام طي في سيارة قوية ولما وصلنا الى القرية وجدناها خالية وبعد التحقيق وجدنا ان الجيش العربي بسبب مضايقة الطيارات لهُ قد انسل خفية تحت جناح الليل الى تل السراب وتربص هناك منتظراً قدوم الطيارات الانكليزية

ولم يطل الوقت حتى قدمت الطيارات ثلاث منها صغيرة وواحدة كبيرة جداً كانت تحمل المون والذخائر للطيارات الاخرى وبعد مناوشات ومعارك هوائية لا فائدة من وصفها هنا لم تعد الطيارات التركية لتزعجنا فرجعنا الى تنظيم جيشنا استعداداً للهجوم على درعا من جهات ثلاث واقترح فيصل ان نضم الى الجيش رجال نوري الشعلان المرابطين في الازرق فاصبح عدد الجيش كلهِ نحو اربعة الاف مقاتل

وكان اول عمل قمنا بهِ قبل الهجوم ان اخذنا في تدمير الخطوط الحديدية لكي

نفصل الفيلق التركي الرابع عن القوة المحاصرة في درعا وبعد عنـاء شديد تمكنا من قطع الخطوط جميعها بطريقة يستحيل اصلاحها في وقت قصير ثم عقـدنا مجلساً حربيا قررنا فيهِ ما ياتي :—

ان نسير شمالاً مارين بقرية تل عرار فنجتاز الخط الحديدي ثم نلقي عصا الترحال في قرية الشيخ سعد وهي تقع بين درعا والمزاريب من جهة ودمشق من جهة اخرى وفيها مياه كافية للشرب . فوافق طلال على رايي هذا وذهب نوري الشعلان مذهبي وراى ناصر ونوري السعيد ما رايت فاتفقت كلمتنا وسرنا في صباح اليوم التالي الى ان دخلنا قرية الشيخ سعد بعد مناوشات عديدة مع المفرزات والحاميات التي كانت تحمي بعض المواقع على طول الخط الحديدي ثم انقسمنا الى ثلاث فرق الفرقة الاولى تحت قيادة طلال يهاجم بها بلدة اذرع والثانية تحت قيادة عودة يهاجم بها خربـة الغزالة والثالثة تحت قيادة نوري يهاجم بها درعا نفسها وما ان جن الليل ثم انقشع عن صباح اليوم التالي حتى بدأت اخبار النصر تأتينا من كل جانب فاستولى طـلال على اذرع وعودة على خربة الغزالة ونوري على درعـا التي بعد ان قرر الالمـان والنمساويون والاتراك على هجرها اعملوا فيها النيران . وانتشرت اخبار الجيش العربي في كل الانحاء وتغنى الناس باسماء نوري وطـلال وناصر وعودة . وزاد فرحنـا باخبار النبي التي جاءتنا معلنـة اجتياح الجيش الانكليزي فلسطين كلها كما انـهُ اتتنا الاخبار ان بلغاريا قد استسلمت للحلفاء بلا قيد ولا شرط واذ كنا لا نعرف ان بلغاريا كانت عدوة لنا لم نتأثر بالخبر كثيراً

وكنا نترقب الاتراك بعين ساهرة فاذا عثرنا على جماعة منهم منهزمين ارسلنا فصيلة من الجيش للايقاع بهم وهكذا مرت عدة ايام نقطع على العدو سبلهُ فنأسر من يستسلم

ونقتل من يستقتل الى ان اتانا ذات يوم خبر مفـاده ان الجيوش الالمانية والنمساوية والتركية قد انسحبت تاركة درعا في جيشين يبلغ الواحد ستة الاف مقاتل والآخر الفي مقاتل فتركنا الاول لشأنهِ لانهُ يفوقنا عَددًا وعزمنا على مهاجمة الثاني ٠ وعلمنا ايضاً ان هذا الجيش سيمر في قرية طفاس وهي قرية طلال الذي قلق لذلك وخاف على اهلهِ من جيش الاتراك المنهزم فطلب اليَّ ان نسرع الى عرقلة سير هـذا الجيش قبل وصولهِ الى القرية المذكورة فلبيت الطلب وامرت الجيش العربي بلحاق الاتراك المنهزمين وقصدنا قرية طـلال فرأينا الجيش التركي قد سبقنا اليها واعمـل في بيوتها النـار وفي سكانها السيف وما كدنا ندخل القرية من جهـة حتى انسحب الاتراك من الجهة الثانية ولما وصلنـا الى البيت الاول ودخلنا الازقة رأينـا النساء مهشمات ومطروحات على الارض وكذلك الاولاد والشيوخ ثم ركضت الينا ابنة صغيرة معفرة الوجه دامية العنق ووقفت امام طلال وقالت لـهُ «ابي لا تضربني» فترجل طـلال وركع امامها ولكنها خافت لسرعة حركتهِ فمشت بضع خطوات ثم سقطت لا حراك بها ولا تسل عن حالة طلال في تلك الساعة فانهُ اخـذ يرغي ويزبد كالبركان الثائر وشاركتهُ في عواطفهِ فقلت لمن معي ان افضلكم من ياتيني باكـبر عدد من القتلى الاتراك الذين امامنا

وسرنا الى الامام نتعقب الاتراك المنهزمين بانتظام

وما هي الا هنيهة حتى رأيت طلالاً قد وقف كأنـهُ صخر وتفرس في الاتراك لحظة ثم اخذ كوفيتهُ من على راسهِ ووضعها في فمهِ واستحث جواده الذي انـدفع بهِ الى الامام كأنهُ الشهاب وامتنع الجيشان عن اطلاق الرصاص ووقفـا ينظران ماذا يكون من امر هذا الرجل ٠ ولما اصبح على قيد خطوات معدودة من العدو وقف وسيفهُ بيده وقال «اتاكم طلال ٠ اتاكم طلال» ولكن قبل ان يصل الى اول رجل امطره العدو وابلًا من الرصاص فجندلهُ وفرسهُ الى الحضيض

فاكبرنا شجاعة طلال وعزمنا على الاخذ بثـاره فاستحثثنا المطايا وراء الاتراك الذين كانوا يجدون في السير وكنا نقتل منهم مَن سقط من الجوع او التعب

وكأن عودة احد قوادنا قد استاسد عندما شاهد طلالاً يمـوت ميتة الابطال ورجعت اليهِ حميتهُ ونشاطهُ وقام حول الاتراك بحركة اجـبرهم معها على الالتجاء الى ارض صعبة ثم فرّق تجمعهم وهجم عليهم برجالهِ الذين اعملوا فيهم السيف بلا شفقة ولا رحمة

وهـكذا كنا نرى فرقاً من الجيش التركي منهزمة من هنا ومن هناك وكنا لاول مرة في الحرب لا ناخذ اسرى بل نقتل مَن وقعت عليهِ ايدينا

وفي هذه المناسبة لا بد لي من ان ابدي اعجابي بالفرق الالمانيـة التي كنا نعثر عليها فكانوا اذا هوجموا جمدوا في وجه العدو بصمت وهدوء وسكون الى ان يموت النفر الاخير منهم فضـلًا عن انهم بعيدون عن اوطانهم مسافـة الفي ميل على اقل تعديل في بلاد لا يعرفون لغة اهلها وعاداتهم

سقطت درعا امام الجيش العربي والانكليزي متحدين ودخـل ناصر الى بيت الحكومة واخذ يعين حراس الامن والحكومة الموقتة واكتفى القائـد الانكليزي بارو بان يترك كل شيء للعرب ويساعد فقط عندما يطلب اليهِ ذلك لكي لا يحصل نفور او خلاف بين الجيشين

وهـكذا اخذت القـوات الحربيـة العربية والانكليزية تجتمع من كل حدب وصوب حول درعا مستعدة لدخول دمشق وكان حظنا ان عـثرنا في مسيرنا على بقية

من الفيلق الرابع تبلغ الالفين عدّاً ولما كنا اقل منها كثيراً عولنا على مناوشتها الى ان تاتي الفرقة الانكليزية التي كانت تسير وراءنا بهدوء وانتظام . فتطوع ناصر وعودة لمهاجمة العدو ومنعه من السير ورجعت الى قائد الفرقة الانكليزية اخبره بالامر فابى اجابة طلبي خوفاً من اضطراب جيشهِ فلم أرَ رايهُ في ذلك وخفت على حياة ناصر وعودة فاسرعت افتش عن قائد اعلى الى ان لقيت الجنرال كريغوري فاخبرتهُ بالامر وحالاً ارسل فرقة من الخيالة انضمت الى الجيش العربي وهاجمت الاتراك هجوماً اتوا فيهِ على آخر نفر في الفيلق الرابع الذي اشغل الجيش العربي مدة سنتين متواليتين

وفي المقال القادم ناتي على وصف دخول جيوش الحلفاء الى دمشق وعلى راسها فيصل ولورنس

✲ ✲ ✲

١٧

سقوط دمشق وتاليف حكومة موقتة فيها

والآن وقد وصلنا الى الحلقة الاخيرة من مغامرات لورنس وفيصل في الصحراء لا نرى امامنا افضل من وصف لورنس نفسهِ دخول الجيش العربي الى دمشق وتاليف حكومة وقتية فيها والى القارىء ما جاء بهِ لورنس

بعد سقوط درعا توجهنا الى دمشق ولما وصلنا الى الكسوة كانت الشمس قد مالت الى المغيب وبدأ الظلام يسدل حجبهُ فاضطررنا الى قضاء تلك الليلة في الكسوة لان الطريق كانت خطرة ولم نرد ان نُقتَل خطأ على ابواب دمشق بعد ان قاسينا الامرين لكي ندخلها منتصرين

كان اللنبي بخطة حربية قد ارسل فرقاً من جيشهِ الى شمالي دمشق وغربيها قبل ان يدخلها الجيش القادم من الجنوب فكان على الضباط العرب ولورنس واحد منهم ان ينتظروا قدوم القيادة الانكليزية لان هكذا كانت ارادة اللنبي ان يشترك الجيشان العربي والانكليزي في الدخول الى دمشق وما كان على الضباط العرب الا

القبول بهـذا لانهم من اللنبي كانوا يستمدون قوتهم فبالطبع كان يامل منهم ان يحترموا ارادتهُ

وكان علينا ان نهيء المدينة لاقتبال الجيش الانكليزي دون مقاومة ولم يبقَ لدينا سوى ليلة واحدة لهذا العمل فلما خيم الغسق ارسل ناصر فارساً من عرب الرولا الى المدينة لكي يطلع لجنة فيصل على حركات الحلفاء خارج المدينة فطلب الفارسُ علي رضا رئيس اللجنة او شكري الايوبي معاونهُ ليخبرهما ان الحلفاء في الخارج يقدمون لهما المساعدة نهار الغد اذا هما الفا حكومة موقتة حالاً . وفي الحقيقة ان الحكومة الموقتة كانت قد تالفت الساعة الرابعة من ذلك النهار ولكن كان علي رضا متغيباً اذ ان الاتراك ولوه قيادة فرقتما بينما كانوا منهزمين من وجه الجيش الانكليزي في الجليل فقام محمد سعيد الجزائري واخوه عبد القادر ومن معهما من الرجال والاتباع واظهروا ميلهم الى شكري الايوبي خدعة ورفعوا العلم العربي فوق السراي بينما كانت فرق الاتراك والالمان تودع المدينة وتلقي عليها النظرات الاخيرة

واذ اراد ناصر دخول المدينة ليـلاً اقنعتهُ انـهُ افضل لهُ ان يبقى الى الصباح ليدخلها كقائد منتصر فقبل نصيحتي واكتفى بان ارسل فرقـة من الجيش لمساعدة شيوخ عرب الرولا الذين كانوا في المدينة وفي منتصف تلك الليـلة عندما انفرد كل منا للراحة والنوم كان من رجالنا في المدينة نحو اربعة آلاف مقاتل

ولكن كيف ننام وامامنا دمشق تلك المدينة التي حاربنا للدخول اليها سنتين كاملتين . فكنا ننظر الى جهتها وقلوبنا تطير شوقاً اليها . وكان الالمـان والاتراك حين تركوها قد اشعلوا فيها مخازن المتفجرات فكنا نرى في الجو فوقها اعمدة من نار ونسمع هزيم اصوات الانفجار حتى خلنا اننا سندخلها وهي رماد وخراب

وفي الصباح باكراً اسرعنا على متن سيارة الى تل يشرف على دمشق ولم نشأ ان نتطلع شمالاً لئلا نرى المدينة اثراً بعد عين ولكن شد ما كان فرحنا عندما رايناها سالمة آمنة وسط جنائن غناء ينساب فيها نهر جميل وكأن ضوضاء ذلك الليل قد خمدت ولم يبقَ من اثارها سوى عمود دخان قاتم يتصاعد من مستودع محطة القدم حيث ينتهي الخط الحجازي

استأنفنا المسير نحو دمشق وكنا نرى الفلاحين خارجين جماعات جماعات لحرث بساتينهم وما هي الا هنيهة حتى استوقفنا احد الخيالة وبيده عنقود من العنب وقال «البشرى لكم . دمشق تحييكم وترحب بكم ». وكان هذا الفارس رسولاً الينا من شكري الايوبي .

واذ كان ناصر ونوري الشعلان على بعد بضعة اذرع منا وجعنا اليهما وابلغناهما الاخبار السارة فطلبا الينا ان يسبقانا الى دمشق على ظهر فرسيهما فطلبنا لهما السلامة وراقبناهما يختفيان امامنا تحت غبار سنابك مطيتيهما واما انا وسترلين فانتحينا ناحية الى ساقية ماء فحلقنا لحانا وغسلنا وجهينا ثم استأنفنا السير نحو دمشق ولما دخلناها اجتزنا الشوارع الى ان وصلنا الى بيت الحكومة على ضفاف بردى وكانت الاسواق مزدحمة وكذلك الشرفات والشبابيك والمزدحمون يهتفون للحلفاء وبعضهم يذكرون اسماءنا

دخلنا بناية الحكومة فرايناها تعج بالرجال الذين كانوا يتدافعون بالاكتاف لضيق المجال وفي وسط الجدال كان كل يؤيد موقف رئيسه حتى اختلط الحابل بالنابل وعلا الصياح ولما دخلنا قاعة الاستقبال وجدنا في صدرها ناصراً ونوري الشعلان والى جنبيهما عبد القادر الجزائري عدوي القديم واخوه محمد سعيد فاخذتني الدهشة

من وجود هذين الرجلين هنـاك وحالاً نهض محمد سعيد الجزائري وقـال انهم هم احفاد الامير عبد القادر الجزائري — ومع شكري الايوبي — قد شكلوا الحكومة وبايعوا الحسين ونادوا بهِ «ملك العرب» وكان ذلك في اليوم السابق على مسمع من الالمان والاتراك المنهزمين · فلما سمعت هذا الكلام ملت الى شكري الايوبي الذي كان يكرمهُ الشعب الدمشقي — ليس لانهُ بارع في السياسة بل لانهُ قاسى من جمـال باشا واضطهاداتهِ لهُ ما جعلهُ بمثابة شهيد في نظر ابناء قومـهِ — وسألتهُ عن الاخوين فقال انهما وحدهما وقفا في جانب الاتراك ضد العرب الى ان عرفا بقرب رحيلهم ثم جاءا على راس اتباعهما ودخلا عنوة على اللجنة العربية وتوليـا الامور كما يشاءان · ولمـا سمعت هـذا الكلام التفت الى ناصر مشيراً اليـهِ من طرف خفي ان يضع حداً لادعاءات هذين الاخوين ولكن في تلك الدقيقـة علت الجلبة والصياح بين القوم المجتمعين وانقسم الجمع الى قسمين تاركين فسحة راينا فيهـا عودة ابا طي وسلطان باشا الاطرش يقتتلان واتباع كل واحد يستعدون للانتصار كل لرئيسهِ فتدخلنا في الامر وابعدنا المتقاتلـين ثم رجعت الى الغرفة الداخلية لاسير في تاليف الحكومـة الجديدة فرايت الجزائريَين وناصراً قد اختفوا اذ ان عبد القادر دعا ناصراً الى بيتهِ لشرب المرطبات والراحة

فلم يرقني ذلك وعزمت على تأسيس حكومة قوية التاثير منذ الساعـة الاولى فخرجت اجول في اسواق المدينة وكانت الشوارع اشد ازدحاماً من الاول واصوات الهتاف تعلو من كل جانب مرددة الثناء على الجيش العربي ومعلنة بفخر اسماء فيصل وناصر وشكري ولورنس ولما بلغت الى البوابـة الشرقية ثم انثنيت الى حي الميدان تسربت اليَّ اشاعة ان شوفل قادم الى دمشق فخرجت للقائهِ واخبرتهُ ان الحكومة غير قادرة ان تنظم عملها قبل يوم الغد ورجوت منهُ ان لا يدخل برجالهِ الى المدينة لئلا تحدث مجزرة هائلة لم تعرف مثلها المدينة منذ سبعمئة سنة

ثم انسللت خفية الى دمشق ودخلت بيت الحكومة فوجدت الجزائريَين وناصراً لم يعودوا فارسلت في طلبهم فقيل لي هم نيام — وهكذا كان يجب ان نكون نحن ايضاً — ولكن كنا جالسين الى طاولة في بيت الحكومة ناكل الغداء ناشفاً . ثم ارسلت رسولاً آخر واوصيتهُ ان يلح في الطلب وما هي الا هنيهة حتى جاء احد ابناء عم الجزائريَين وقال ها هم قادمون فعرفت ان تلك كذبة فقلت لهُ حسناً فان في نصف ساعة ساجلب الى هنا جيشاً انكليزياً ياتيني بهم مرغمين فقفل مسرعاً . ثم التفت اليَّ نوري الشعلان وقال وماذا تريد ان تفعل ؟ فقلت لهُ . اريد ان اخلع الجزائريين واضع شكري الايوبي مكانهما الى ان يأتي فيصل وقصدت ان افعل ذلك بهذه الطريقة اللطيفة لانني لا اريد ان اغضب ناصراً فضلاً عن انهُ ليس لديَّ قوة من الرجال انفذ بها اوامري اذا رفض الجزائريان قبولها . فقال نوري الشعلان « او لا ياتي الانكليز الى المدينة ؟ » قلت « دون شك ياتون ولكن المهم انهم لا يعودون يخرجون منها بسهولة » . فافتكر هنيهة ثم قال « ان رجالي تحت امرك تصرف بهم كما تشاء » وخرج فجمع رجالهُ واوصاهم بالطاعة لي وكذلك جمعت حرسي حولي فوقفوا متاهبين للعمل ولما جاء الجزائريان ورايا الحالة شديدة سكتا ولم يحركا ساكناً وبصفتي نائباً عن فيصل اعلنت ان حكومة الجزائريين المدنية ملغاة وعينت شكري باشا الايوبي نائب حاكم المدينة العسكري ونوري السعيد قائداً للجيش وعزمي معاوناً لهُ وجميلاً مدير الامن العام

فلما سمع عبد القادر هذا الاعلان شتمني قائلاً انني مسيحي انكليزي والتفت الى ناصر لكي ينصره عليَّ ولكن مسكين ناصر فانهُ قد خسر بالتجائهِ الى الجزائريين الاعوان والاصحاب فلم يحر جواباً . واستمر عبد القادر يرغي ويزبد ويشتم وانا لا اجيبهُ بكلمة وكأن سكوتي قد زاد في غضبهِ فنهض الى وسط الغرفة شاهراً سيفهُ يقصد شراً فهب عودة وامسكهُ وفي عينيهِ شرر الغضب وفي اصابع

يديهِ قوة الاسد فهدأت انفاس عبد القـادر ثم ساد السكوت عندما تـكلم نوري الشعلان وهو مطرق الى الارض قائـلاً ان عرب الرولا كلهم تحت امر لورنس ولا جدال في ذلك

فلما سمع الجزائريان ذلك خرجا من القاعة يتعثران باذيال الفشل والخيبـة . ثم رجعنا الى العمل والتنظيم وهنا راينا صعوبات جمة كيف لا وكان علينا ان نحول تلك الحماسة الثورية المشتعلة في صدور الثـوار الى السلام والسكينة والامن . وكانت الصعوبة لدى فيصل ترك الاصدقـاء الذين ناصروه في الحرب لعـدم مقدرتهم على الادارات المدنية ولكن بعد عمل شاق كانت دمشق في ذلك اليوم في قبضة حكومة منظمة لها بوليسها وادارة صحتها وغير ذلك من الدوائر ثم بدأت الجيوش تتدفق اليها من كل حدب وصوب

وبعد ان سارت الامور في مجاريهـا الطبيعية في وقت قصير اختـفى لورنس عن المرسح ليعيش سراً من الاسرار في البقاع الشرقية بعد ان رافق الامير فيصل والوفد العربي الى باريس مطالبين بالشروط التي وعد بها الحلفاء العرب

وفي المقال القادم ناتي على الحلقة الاخيرة من هذه السلسلة ذاكرين فيها ما حدث للورنس بعد ذلك وكيف رجع الى الاختفاء بعد هذه الاعمال العظيمة

١٨

لورنس بعد الثورة العربية

انهينا في المقال الماضي وصف الجهود والمغامرات التي قام بها لورنس اثناء الثورة العربية مبتدئاً من جدة في السنة ١٩١٦ الى ان انتهى بدمشق في السنة ١٩١٨ حين دخلها بجيوشهِ العربية والانكليزية دخول المنتصر . وراى لورنس بثاقب نظره ان الطريق لم تمهد تماماً امام العرب للبلوغ الى غايتهم التي كانوا ينشدونها والتي لاجلها ثاروا في وجه الاتراك ولهذا كان غير واثق من النتيجة كل الوثوق كما انـهُ كان يعلم تمام العلم ان الحلفاء قـد وعدوا العرب بمنحهم استقلالهم في الجزيرة وسوريا وفلسطين والعراق وشرقي الاردن اذا هم استمروا في ثورتهم في وجه الاتراك الى ان يجلوهم عن هذه البلدان ولكنهُ راى في الوقت نفسهِ ان الحلفاء ينوون غير ما وعدوا بهِ ولهـذا قرر على الذهاب الى باريس مع الوفد العربي ليساعدهم في المعارك السلمية كما ساعدهم في المعارك الحربيـة . وكان على راس الوفد العربي الامير فيصل قائـد الثورة العام وعندما انتهى موتمر السلام رجع الوفد الى بلاده حائزاً على بعض مطالبهِ اذ ان سوريا شُطرت الى شطرين انتُدبت فرنسا على الشطر البحري وهو لبنان . وانكلترة على

فلسطين والعراق واعطي ما بقي للعرب فنودي بالحسين ملكاً على الحجاز وبفيصل ملكاً على عرش سورية ولكن قضت السياسة بان يغادر فيصل دمشق فتركها مضطراً امام وجه الجيوش الفرنسية

وكأن هذه النتيجة لم ترق لورنس ففضل الانزواء في خلوة لا تصل اليه معاتبة العرب بالعهود التي كان الحلفاء قد قطعوها معهم بواسطته. كما انهُ رفض كل الاوسمة التي قدمها اليهِ الحلفاء . حتى ان رجال امتهِ ارادوا ان يقدموا لهُ «وسام فكتوريا» وهذا اعلى وسام تمنحهُ انكلترا لابطالها ولكن لورنس رفض الوسام ولقب الفروسية وكل المراتب العالية التي قدمت اليهِ واختفى عن الابصار فسكن في احدى الغرف في مدينة لندن دون ان يعلم بهِ احد غير انهُ لم يطل الوقت حتى عرف بهِ مراسلو الجرائد والمصورون فاخذوا يطاردونهُ من مكان الى آخر وهو يهرب من وجههم تخلصاً منهم ومن اسئلتهم واخيراً انتظم في سلك اساتذة اكسفورد حيث عين استاذاً مجاناً واتخذ من منزلهِ الجديد صومعة هو ناسكها فكان ينام في النهار ويعمل في الليل لكي يتخلص من زائريهِ الكثيرين وانصب في ذلك الوقت على تأليف كتابهِ المشهور الذي يصف فيهِ رحلاتهِ ومغامراتهِ في البلاد العربية والذي اعتمدنا عليهِ كثيراً في كتابة هذه المقالات

واذ كان لورنس على وشك الانتهاء من تأليف كتابهِ حملهُ يوماً في حقيبتهِ وسافر من اكسفورد الى لندن لقضاء بعض الاشغال واذ كان في طريقه راجعاً اغفل عن الحقيبة هنيهة فسطا عليها لص وهرب بها فكان على المؤلف ان يعود فيضع الكتاب مرة اخرى

وفي السنة ١٩٢١ اقنعتهُ الحكومة الانكليزية بقبول مركز في وزارة المستعمرات كمستشار في الشؤون العربية فقبل المركز لمدة سنة فقط وقام بالعمل الذي التي اليهِ احسن قيام ويقولون ان نجاح فيصل في اعتلاء عرش العراق

راجع الى لورنس الذي كان في ذلك العهد مستشارًا في الوزارة الخارجية

ولما انقضى اليوم الاخير من تلك السنة وضع لورنس قبعتهُ على راسهِ وخرج من وزارة المستعمرات واختفى عن العيان الى ان تسربت اشاعات عنهُ تقول انهُ عاد فانتظم في سلك جيش الطيران الانكليزي كنفر بسيط متخذًا لهُ اسماً جديدًا ولما عرفت هويتهُ في جيش الطيران اختفى مرة اخرى عن اصدقائهِ والمعجبين بهِ

وفي احد الايام جاء الى فرقة المدفعية شاب يطلب الدخول فيها ولما سئل عن اسمهِ اجاب ان اسمهُ « مستر شو » فقُبل واصبح كغيره من افراد الفرقة ولكن حدث ان احد الجنود وكان قد راى صورة لورنس في جريدة ما وعند رؤيتهِ هذا الجندي الجديد لاحظ الشبه بين الاثنين فثارت في راسهِ الوساوس واخذ يدقق في مراقبة رفيقهِ الجديد الى ان راى يوماً ما غلافاً تحت وسادة « الجندي شو » مكتوباً عليهِ « الكولونل توماس لورنس » فكان ذلك قاضياً على جهود لورنس في العودة الى الخفاء

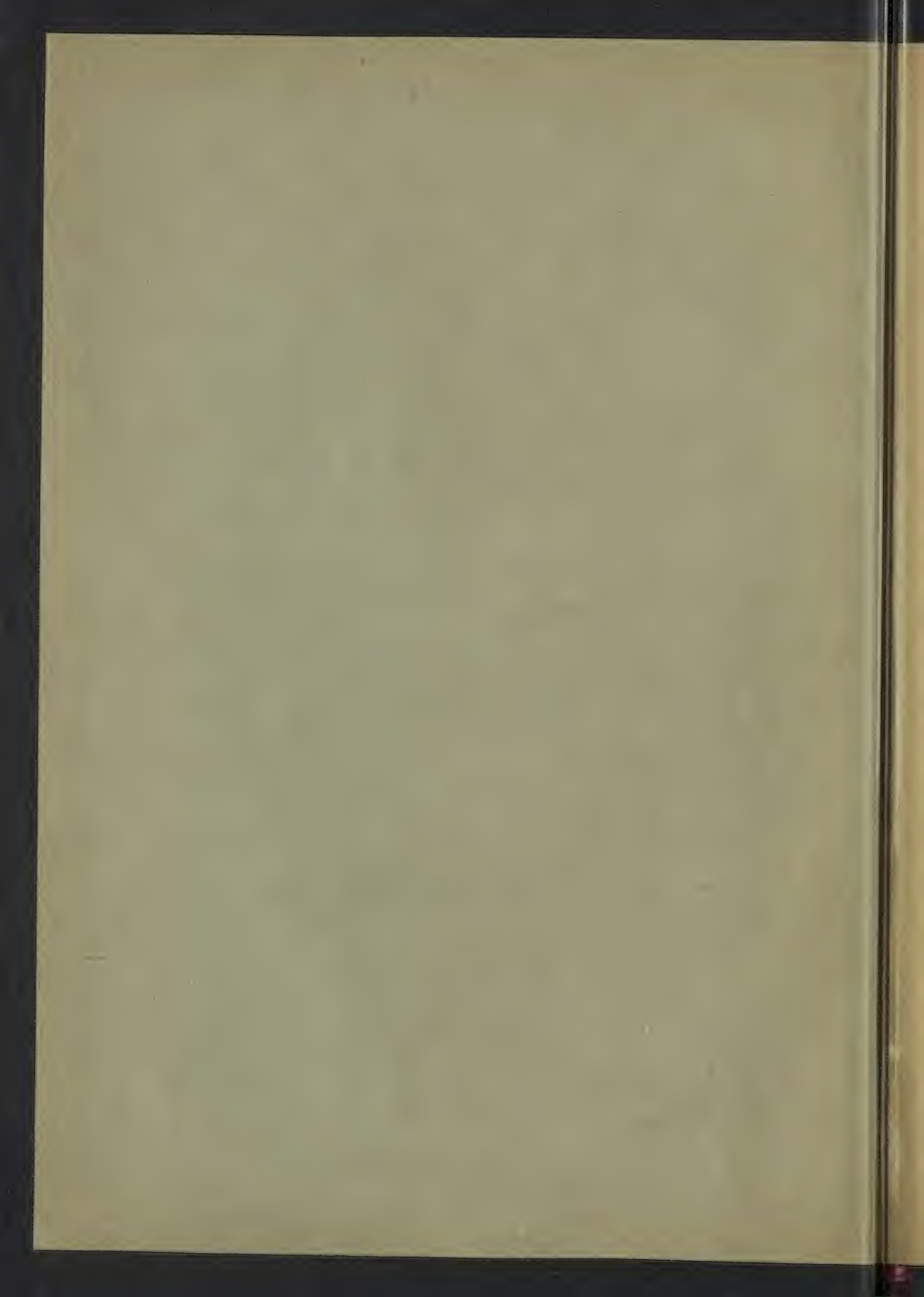
واما اتخاذ لورنس اسم « شو » فلهُ قصة لا باس من ذكرها وهي ان لورنس والكاتب الانكليزي المشهور برنارد شو صديقان حميمان واذ كان الاول عند صديقهِ يشرب الشاي دخلت سيدة وجلست مع المدعوين ولما رات الشاب لورنس ظنتهُ ابن المستر شو فقالت لهُ ولامرأتهِ « ان علامات الذكاء تظهر على وجه ابنكما » فضحك لورنس لهذا الكلام ودعا نفسهُ بعد ذلك « المستر شو » . ثم عاد لورنس واختفى مرة اخرى الى ان ظهر كتابهُ المشهور « الثورة العربية في الصحراء »

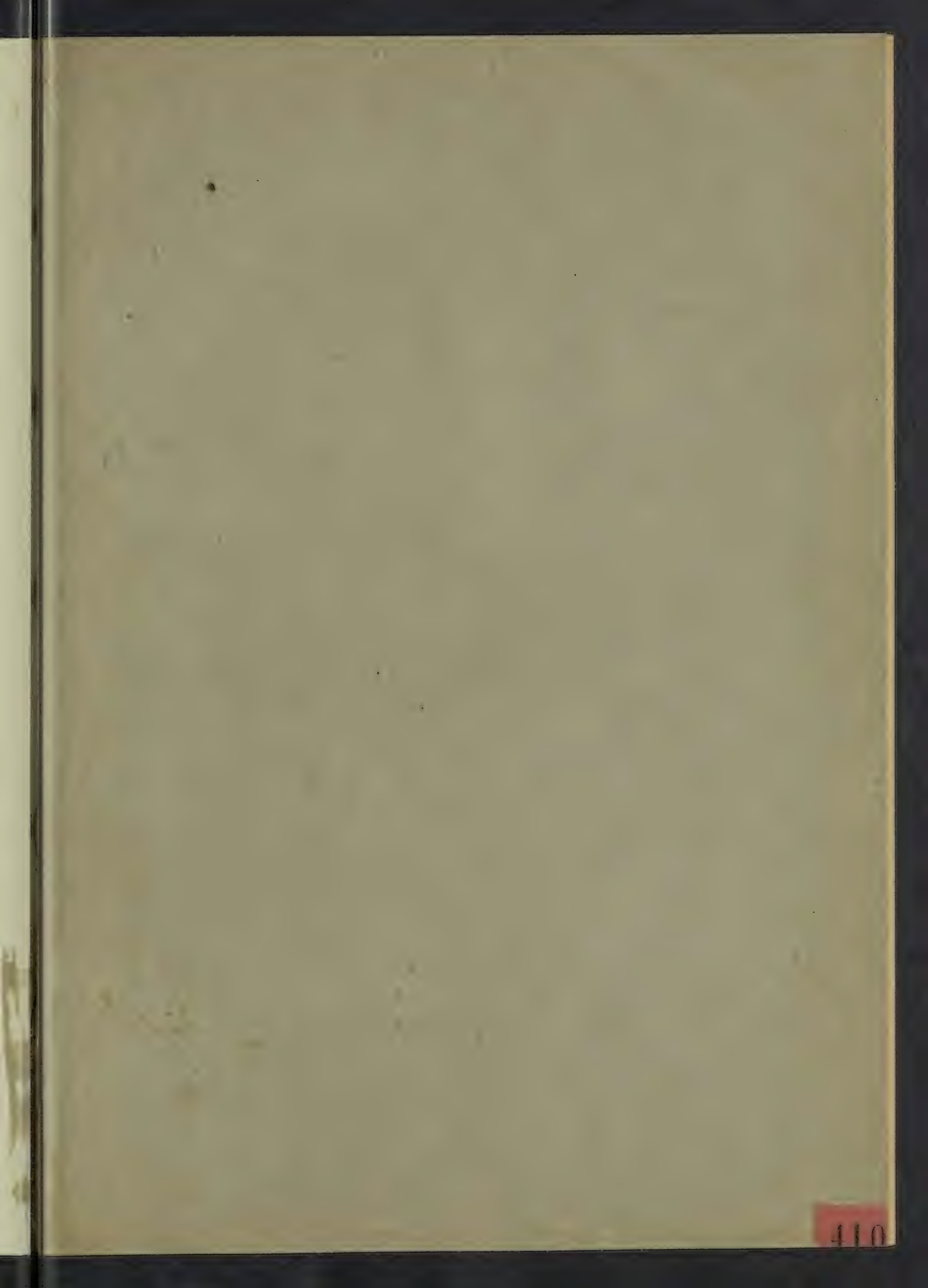
ومما يروى عنهُ انهُ بينما كان تلميذًا في جامعة اكسفورد اتفق مع احد اصحابهِ على انهُ اذا قام احدهم بعمل عظيم في الحياة يبرق لرفيقهِ ليحضر اليهِ ويشاركهُ في افراحهِ . وبعد انتهاء الثورة العربية الكبيرة لم يدعُ لورنس صديقهُ اعتقادًا منهُ ان كل هذه الاعمال ليست ذات اهمية . ولكن في السنة ١٩٢٠ تلقى صديق لورنس رسالة

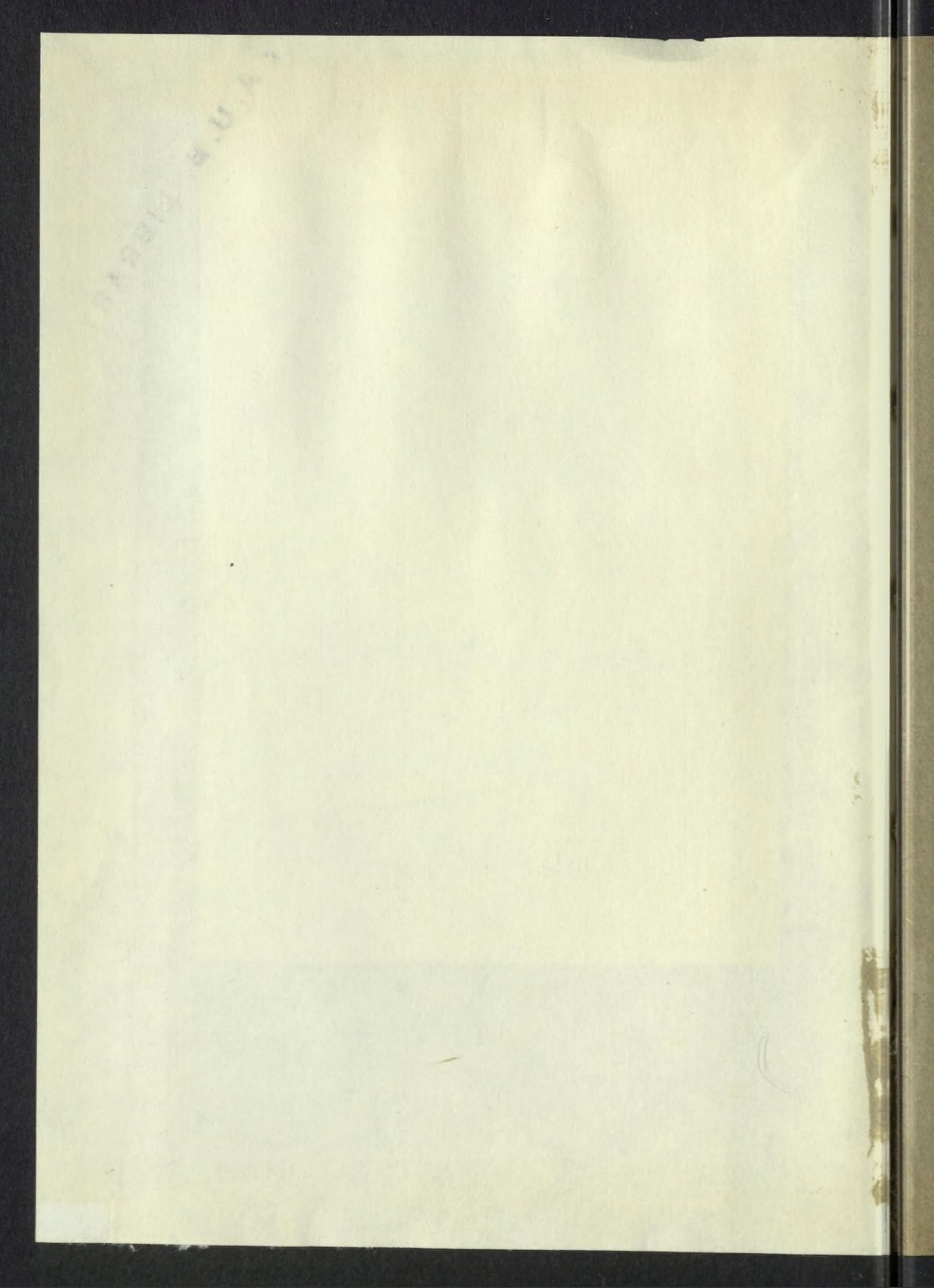
برقية جاء فيها « احضر قد عملت شيئاً » فذهب الصديق الى لورنس وراه قد اكمل بناء بيت صغير في احدى المزارع حيث اراد ان يعيش بسلام بعيداً عن ضوضاء المدنية والحركة السياسية وكان بناء ذلك البيت في نظره اهم من الثورة الكبيرة التي قاد جيوشها في وجه الاتراك كما ذكرنا في الصفحات المتقدمة

وبسبب الحوادث الاخيرة في فلسطين والبلاد العربية قد توجهت الانظار نحو لورنس فاذا بهِ قد عاد الى الاختفاء وهذا ما دفع الكثيرين الى الاعتقاد انهُ يتجول الآن في البلدان العربية يتسقط الاخبار للوزارة الخارجية في دولته ويرشدها الى الى الخطوات التي يجب عليها السير بموجبها حتى ان لُوَل توماس صديقهُ ورفيقهُ في البلاد العربية يخامره الاعتقاد ان لورنس في الشرق الادنى يراقب الحوادث الفلسطينية والعربية عن كثب . وهو يتصوره متجولاً بين زعماء الصحراء مفاوضاً ومساوماً الى ان تتم الصفقة

على ان كل هذه التكهنات عن مقر لورنس الآن لا تخرج عن حيز الظن ولكن لا بد ان تكشف لنا الايام القناع عما يتستر به هذا البطل الخفي







DATE DUE

